الاستشراق والاستمزاغ والاستعراب والاستغراب (مقــاربة مفاهيمية)

▪ د. جميل حمداوي
▪ أستاذ التعليم العالي بالمغرب

المقدمة:

ثمـة مجموعـةٌ مـن المفاهيـم والمصطلحـات والـدوالّ الشـائكة والصعبـة في حقـل الفكـر الإنسـاني والنقـد الأدبي والأدب المقـارن التـي ينبغـي التوقّـف عندهـا لفهمهـا ودراسـتها ومناقشـتها وتفسـيرها نظـراً لأهميتهـا في تفكيـك النصـوص وتحليلهـا وتركيبهـا. ومـن بـين أهـم هـذه المصطلحـات الاسـتشراق (Orientalisme)، والاسـتعراب (Arabisme)، والاسـتمزاغ (Berbérisme)، والاسـتغراب (Occidentalisme).

ومـن هنـا، آثرنـا أن نتمثّـل المقاربـة المفاهيميـة بغيـة استكشـاف مكونـات هـذه الـدوالّ، ورصـد سـماتها البنيويـة والدلاليـة والوظيفيـة.

إذاً، مـا دلالات الاسـتشراق والاسـتمزاغ والاسـتعراب والاسـتغراب؟ ومـا سـياقاتها الفكريـة والإبسـتمولوجية؟ ومـا مقوماتهـا ومرتكزاتهـا النظريـة والتطبيقيـة؟ ومـا مجـالات اسـتعمالها؟ ومـا خلفياتهـا العلميـة والإيديولوجيـة والفكريـة؟

هـذا مـا سـوف نتوقف عنـده في موضوعنـا هـذا في ضـوء المقاربـة المفاهيمية حتـى نستكمل بنـاء معرفـةٍ شـاملةٍ مفصّلـةٍ ووافيـةٍ حـول هـذه المفاهيـم الأربعـة في مختلـف تجلياتهـا الظاهـرة والباطنة.

المبحث الأول: مفهوم الاستشراق

يعني الاستشراق (Orientalism/Orientalisme/Orientalismo) دراسة الشرق أو المشرق.. ومِن ثَمّ، فالاستشراق عبارةٌ عن حركةٍ أدبيةٍ وفنيةٍ مولَعةٍ بسحر الشرق، ظهرت في الغرب إبان القرن التاسع عشر الميلادي. وقد ارتبط الاستشراق بالبحث عن الغرابة والنبالة، والتشبع بالقيم البورجوازية، والانسياق وراء العوالم الشرقية العجيبة والغريبة، والرغبة في الانصهار في الحياةالتي عبرّت عنها نصوص ألف ليلةٍ وليلةٍ، والتعطش إلى جمال الصحراء ولوحاتها الفنية المتميزة، والانتشاء بزرابيّ فارس، والإعجاب برجولة الإنسان الشرقي وفروسيته وشجاعته وكرمه، والتغنّي بجواري القصور والمجالس، والبحث عن أسرار حريم السلاطين، والرغبة العارمة في في الاطلاع على نوادي الموسيقى والغناء والشعر والأدب التي انتشرت كثيراً في الشرق العربي الإسلامي، والانجذاب وراء اللوحات التشكيلية التي تتغنى بسحر الشرق وجماله المعتق، والانبهار بالحضارة الشرقية في مختلف تجلياتها ومجالاتها وميادينها المتنوعة والمختلفة.

ومن ثم، فالاستشراق هو دراسة الغرب للشرق بغية فهمه وتفسير أحواله، والاهتمام بمعارفه وعلومه وحضارته، وخدمة تراثه لجعله رافعةً لانطلاق الغرب وتقدّمه وازدهاره. ولا يعني الشرق -هنا- الشرق العربي والإسلامي فحسب، بل يندرج ضمنه ما يُسمّى بشمال إفريقيا الذي كان تابعا للدولة العثمانية. وقد كان الاستشراق في بدايته استشراقًا كولونياليًّا استعماريًّا الغرض منه دراسة الشرق تمهيدًا لاستعماره، وتغريبه في العادات والتقاليد والأعراف، وتنصيره دينيًّا وعَقَديًّا، واستغلال ثرواته الطبيعية، وإذلال الإنسان العربي والمسلم.

ويعرف المفكر الألماني رودي بارت الاستشراق بقوله:» كلمة الاستشراق مشتقةٌ من كلمة شرق، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق، أو علم العالم الشرقي.»[1]

(١) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، مصر، ص:١٢.

وعلى الرغم من أن لفظة الشرق فضفاضةٌ من الصعب تحديدها؛ لأنّ ثمة أنواعًا مختلفةً من الشرق، فهناك الشرق الأدنى، والشرق الأقصى، والشرق الأوسط، وشمال إفريقيا الذي يقع في الغرب. لذا، فمن الصعب تعريف الاستشراق بدقةٍ وافيةٍ. ومن ثَمّ، فالاستشراق هو تخصُّص العلماء الغربيين في الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها.

أما المستشرق (Orientaliste)، فهو الذي أتقن لغات الشرق،وأعد شهاداتٍ عليا في موضوعٍ من المواضيع التي تتعلق بالشرق، وانكبّ على معالجة الظواهر والقضايا التي أفرزها هذا الشرق بغية فهمه وتفسير أحواله وتأويلها. وبمعنًى آخرَ، تشتق لفظة المستشرق من طلب دراسة الشرق. ومن ثَمّ، فالمستشرقون «**هم الذين يتعلّمون لغة الشرق، ويَدرسون علومه وحضارته، ليكون لهم علمٌ تامٌّ بأحواله الاجتماعية والسياسية والعقلية، يطلبون بذلك أن يندمجوا فيه كل الاندماج، ليكون فهمهم له، وحديثهم عنه، وحكمهم عليه، خاليًا من التخيُّل، بعيدًا عن التوهّم، أو بمنأًى عن التزيُّد، والمبالغة.**[1]»

ومن هنا، فالمستشرقون هم جماعةٌ من العلماء والباحثين والدارسين والمفكّرين الغربيين الذين تخصّصوا في لغات الشرق وعلومه وفكره، وأغلب هؤلاء المستشرقين من رجال الدين، سواءً أكانوا رهبانًا، أم يهودًا، أم ملحدين، أم مسيحيين كاثوليك، أم بروتستانتيين، أم أرثودوكسً[2]... وبهذا، تكون دوافع الاستشراق استعماريةً دينيةً، قبل أن تكون دوافعَ علميةً وفكريةً وبحثيةً.

وثمة عدة أسبابٍ ودوافعَ أساسيةٍ كانت وراء بروز حركة الاستشراق في البلدان الغربية من أهمها الدوافع الدينية، والحركة الصليبية، والإصلاح الديني، والرغبة في فهم الشرق بصفةٍ عامّةٍ، وفهم الإسلام والمسلمين وحضارتهم بصفةٍ خاصّةٍ. ناهيك عمّا يرتبط بالتّبشير والتّنصير، وما يتعلّق بخدمة الاستعمار بغية السيطرة والهيمنة على العالم الإسلامي، علاوةً على

(١) عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، ص:١٧٦.

(٢) عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص:١٧٦-١٧٧.

الأهداف السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والمجتمعية والعلمية، وما يرتبط بالعوامل الشخصية والاقتناعات الذاتية التي تتمثّل في «**أسبابٍ شخصيةٍ مِزاجيةٍ عند بعض الناس الذين تهيّأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلةً لإشباع رغباتهم الخاصة في السّفر أو في الاطّلاع على ثقافات العالم القديم، ويبدو أنّ فريقًا من النّاس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى، أو دخلوه تخلُّصا من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية. أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئةً لذمتهم الدينية أمام إخوانهم في الدين، وتغطيةً لعجزهم الفكري، وأخيراً بحثًا عن لقمة العيش؛ إذ إنّ التنافس في هذا المجال أقلُّ منه في غيره من أبواب الرزق.**»[1]

وعلى الرغم من هذه الدوافع العديدة، تظلّ الأهداف الدينية هي الأساس، فالمستشرقون هم جماعةٌ من العلماء والباحثين والدارسين والمفكرين الغربيين الذين تخصصوا في لغات الشرق وعلومه وفكره، وأغلب هؤلاء المستشرقين من رجال الدين، سواءً أكانوا رهبانًا، أم يهودًا، أم ملحدين، أم مسيحيين كاثوليك، أم بروتستانتيين، أم أرثودوكس...[2]

ويُعدُّ المستشرقون اليهود -الذين يحملون جنسياتٍ غربيةً متعددةً ومتنوعةً ومختلفةً- أكثرَ خطورةً في ميدان الاستشراق؛ لأنهم انطلقوا من أهدافٍ دينيةٍ وعقديةٍ مَحْضةٍ لتشويه الإسلام والمسلمين، والتشكيك في معتقداتهم الدينية، والحطّ من حضارتهم الزاهية. وكانت النزعة الصهيونية واضحةً وجليةً في كتاباتهم العدوانية تجاه الإسلام بصفةً خاصّةً. وفي هذا الصدد، يقول المفكر المصري محمد البهي: «**وهناك ملاحظةٌ لبعض الباحثين تتعلّق بالمستشرقين اليهود خاصّةً. فالظاهر أنّ هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسبابٍ دينيةٍ، وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية، في نظرهم، هي مصدر**

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة ١٩٧٣م، ص:٥٣٣.

(٢) عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، ص:١٧٦-١٧٧.

الإسلام الأول، ولأسبابٍ سياسيةٍ تتّصل بخدمة الصهيونية: فكرةً أولا ثم دولةً ثانيًا، هذه وجهة نظرٍ ربما لا تجد مرجعًا مكتوبًا يؤيدها غير أنّ الظروف العامة، والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزّز وجهة النظر هذه، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي.»[1]

إذًا، فالسبب الرئيس المباشر الذي دعا الأوربيين إلى الاستشراق هو سببٌ دينيٌّ محضٌ؛ «**فلقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوربيين ما تركت من آثارٍ مُرّةٍ عميقةٍ. وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي فشعر المسيحيون: بروتستانت وكاثوليك، بحاجاتٍ ضاغطةٍ لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، ولمحاولة تفهُّمها على أساس التطوّرات الجديدة التي تمخّضت عنها حركة الإصلاح، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية. وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية؛ لأن الأخيرة كانت ضروريةً لفهم الأولى، وخاصّةً ما كان منها متعلِّقًا بالجانب اللُّغوي. وبمرور الزمن اتّسع نطاق الدراسات الاستشراقية حتى شملت أديانًا ولغاتٍ وثقافاتٍ غيرِ الإسلام وغيرِ العربية.**»[2]

ومن جهةٍ أخرى، فلقد كان التبشير والتنصير من أهم العوامل الأخرى التي دفعت الباحثين الغربيين للاهتمام بالشرق. «**فلقد رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنّى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي. والتقت مصلحة المُبشّرين مع أهداف الاستعمار فمكّن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشّرق. وأقنع المبشّرون زعماءَ الاستعمار أنّ المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق. وبذلك سهّل الاستعمارُ للمبشرين مهمّتهم وبسط عليهم حمايته، وزوّدهم بالمال والسلطان، وهذ هو السبب في أنّ الاستشراق قام في أوّل أمره على أكتاف المبشّرين والرّهبان ثم اتّصل بالاستعمار.**»[3]

(١) محمد البهي: نفسه، ص:٥٣٤.
(٢) محمد البهي: نفسه، ص:٥٣٣.
(٣) محمد البهي: نفسه، ص:٥٣٣.

وبهـذا، تكـون دوافـعُ الاسـتشراق دينيـةً تبشـيريةً وتنصيريّـةً واسـتعماريّةً، قبـل أن تكـون دوافـعَ علميّـةً وفكريّـةً وبحثيّـةً. وفي هـذا، يقـول محمـد البهـي: «**ينطـوي عمـل الدارسـين للإسـلام مـن المسـتشرقين عـلى نزعتـين رئيسـيتين:**

- النزعـة **الأولى:** تمكـين الاسـتعمار الغـربي في البـلاد الإسـلامية، وتمهيـد النفـوس بـين سـكّان هـذه البـلاد لقبـول النفـوذ الأوروبي والرضـا بولايتـه.
- النزعـة **الثانيـة:** الـروح الصليبيـة في دراسـة الإسـلام، تلـك النزعـة التـي لبسـت ثـوب البحـث العلمـي، وخدمـة الغايـة الإنسـانية المشـتركة.»[1]
- ومـن جهـةٍ أخـرى، يمكـن الحديـث عـن أنـواع مـن الاسـتشراق عـلى النحـو التـالي:
- الاسـتشراق الكلاسـيكي الـذي ارتبـط بالعصـور الوسـطى، وبـزوغ النهضـة الأوروبيـة، واكتشـاف سـحر الـشرق مـع الرحـلات الأوروبيـة، والاهتـمام بالكشـوف الجغرافيـة التـي اسـتهدفت الانفتـاح عـلى طـرق الحريـر والتوابـل. ومـن جهـةٍ أخـرى، ارتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بالحـروب الصليبيـة التي كان الهـدف منهـا هـو تحريـر فلسـطين المسـيحية، وطـرد المسـلمين منهـا.
- الاسـتشراق الحديـث هـو الذي تشـكلت معالمـه الأولى في القرن التاسـع عـشر الميـلادي، وكان الغـرض منـه فهـم الـشرق، ولا سـيما العـربي والإسـلامي منـه، بغيـة الاهتـمام بتراثـه وحضارتـه وعلومـه، ودراسـته وفـق مناهـج العلـم الحديثـة.
- الاسـتشراق الجديـد هـو الـذي يـدرس القضايـا المعـاصرة الراهنـة، ولا سـيما علاقـة الغـرب بالـشرق، والحديـث عـن الـصراع العـربي الإسرائيـلي، أو الـصراع العـربي الغـربي، أو التنافـس الأمريـكي والصينـي، والاهتـمام بقضايـا التطـرف، والإرهـاب، والأصوليّـة، والاسـتعمار الجديـد، والحديث عـن صراع الأديـان وفلسـفة القيـم الكونيـة... كـما يظهـر ذلـك جيـدًا عنـد كلٍّ مـن الأمريـكي برنـارد لويـس، والأمريـكي صمويـل هنتنغتـون، والبريطـاني فيديـار سوراجبراسـاد نيبـول، والإسـبانية ماريـا مينـوكال (María Rosa Menocal)، في كتابهـا (زينـة العـالم: كيـف صنع المسـلمون

(١) محمد البهي: نفسه، ص:٥٢.

واليهـود والمسـيحيون ثقافـة التسـامح في إسـبانيا العـصر الوسـيط)»[1]...

ومـن ناحيـةٍ أخـرى، يمكـن الحديـث عـن اسـتشراق مُعـادٍ للإسـلام والمسـلمين، كـما يتّضـح ذلـك بَيِّنًـا عنـد إرنسـت رينـان، وكازانوفـا، وكارل بروكلـمان، وإينيـاس غولدتزيهـر، وغوسـتاف فـون غرونبـاوم، وهـنري لامانـس...

بيـد أنّ هنـاك اسـتشراقًا علميًّـا موضوعيًّـا كان الغـرض منـه دراسـة حضـارة الـشرق دراسـةً موضوعيـةً، باتّبـاع مناهـج العلـم المحايـدة، وإنصـاف الإسـلام، وتسـفيه أحـكام الغـرب الباطلـة تجـاه الإسـلام والمسـلمين. وقـد اعـترف هـذا الاسـتشراق بحضـارة المسـلمين، واعتبروهـا حضـارةً شرعيـةً بامتيـاز، سـاهمت في بنـاء الحضـارة الغربيـة الماديـة، كـما نجـد ذلـك واضحًـا عنـد المسـتشرقة الألمانيـة فيزيغريـد هونكهفـي كتابهـا (شـمس العـرب تسـطع عـلى الغـرب)[2].

ومـن المدافعـين عـن الإسـلام وحضارتـه البلجيـكي جـورج سـارتون، والفرنـسي إميـل درمنجـم، والبريطـاني ويلفريـد بلنـت، والفرنـسي هـنري دي كاسـتري، والمسـتشرقة الإيطاليـة **لـورا فينشـيا فاليري**، والمسـتشرقة الإيطاليـة فاليريـا بوروخـا، والفرنـسي موريـس بـوكاي، والشـاعر الألمـاني غوتـه، والألمـاني روديـت باريـت، والألمانيـة أنّا-مـاري شـميل، والإنجليـزي تومـاس كارلايـل، والأمريـكي **واشـنطن إرفنـغ، والشـاعر الفرنـسي لامارتـين، والفرنـسي روجيـه غـارودي،** والمسـتشرقة الأمريكيـة مارغريـت ماركـوس، والألمـاني **مـراد هوفـمان، والمهنـدس البريطـاني اللـورد هـدلي، والفيلسـوف الفرنـسي** رينيـه غينـون الـذي لُقِّـب بعبـد الواحـد يحيـى، والفرنـسي روبـيرت بيرجوزيـف، والإنجليزي**محمـد مارماديـوك باكتـال،** والمسـتشرق الأمريـكي البروفيسـور خالـد بلانكـين شـيب، والصحفيـة الهولنديـة نـاصرة زهرمـان، والفرنـسي **إدوار بـروي، والفرنـسي مارسـيل بـوازار،** و**هنري بولانفلييـه، والفرنـسي روني بلاشـير**، و**كارا دي فـو، والفرنـسي فولتـير...**

وثمـة مسـتشرقون اعتنقـوا الإسـلام كالمسـتشرق الفرنـسي روجيـه غـارودي، والمسـتشرق الفرنـسي ميشـو بللـر الـذي درس حضـارة المغـرب ومجتمعـه،

(١) María Rosa Menocal :The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians - Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain Little, Brown, (٢٠٠٢).

(٢) زيغريدهونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، طبعة ١٩٩٣م.

والسويسري جوهن لويس بوركهارت، والألماني فريتس كرنكوف، والمجري عبد الكريم جرمانوس...

وهكذا، يتبين لنا أن الاستشراق الموضوعي قد قدم خدمات جليلة للحضارة العربية الإسلامية، بتحقيق نصوصها ومخطوطاتها ونشرها من جهةٍ أولى، ودراستها وتحليلها وفهمها وتأويلها من جهةٍ ثانيةٍ، والتعريف بأعلامها وفكرها وثقافتها وعلومها من جهةٍ ثالثةٍ. في حين، هناك استشراقٌ استعماريٌّ وكنسيٌّ وعنصريٌّ وعرقيٌّ غيرُ علميٍّ أساء إلى المسلمين وحضارتهم جملةً وتفصيلاً.

وفي ما يخص المناهج، فلقد دَرَس المستشرقون الغربيون، ومن تَبِعهم من العلماء المسلمين، التراث العربي الإسلامي وفق الرؤية الغربية القائمة على التمركز والهيمنة والاستعلاء، وتطبيق المناهج العلمية المادية، واستخدام النظرة التجزيئية، والانطلاق من المعتقدات المسيحية الملحدة، وتشكيك المسلمين في تراثهم بتوظيف المناهج العلمية الحديثة والمعاصرة. ومن ثَمّ، تتأرجح قراءتهم للتراث بين الذاتيّ والموضوعيّ.

وتمتاز النظرة الاستشراقية، في تدريس التراث العربي الإسلامي، بتكريس النزعة الاستعمارية، ومعاداة العقلية السّاميّة، والغض من قيمتها على المستوى المعرفي والعلمي، وترجيح كفة العقلية الآرية. ويتجلى هذا واضحًا في عدم اعتراف بعض المستشرقين بالفلسفة الإسلامية، والانتقاص من علم الكلام والتصوف الإسلامي؛ لأنّ العقلية السَّامِيّة غيرُ قادرةٍ على التجريد والتركيب، وبناء الأنساق الفلسفية الكبرى وجودا ومعرفةً وأخلاقًا، كما يذهب إلى ذلك المستشرق الألماني رينان.

ومن جهةٍ أخرى، تمسك المستشرقون الغربيون، منذ القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بالدفاع عن المركزية الأوروبية باعتبارها نموذجًا للمعرفة والعلم والحقيقة. وقد انطلق هؤلاء الدارسون من مناهجَ فيلولوجيةٍ، أو مناهجَ تاريخيةٍ، أو مناهجَ ذاتيةٍ. ويعني هذا أن المستشرق، صاحب المنهج التاريخي، «**يفكر شموليًّا في الفلسفة الإسلامية لا بوصفها جزءًا من كيانٍ ثقافيٍّ عامٍّ، هو الثقافة العربية الإسلامية، بل بوصفها امتدادًا**

منحرفًا أو مشوَّهًا للفلسفة اليونانية. وبالمثل، يفكّر في النحو العربي ومدارسه، يوجّهه هاجس ربطها بمدارس النحو اليونانية في الإسكندرية أو برغام وبيان تأثّرها بالمنطق الأرسطي، كما لا يتردد في ربط الفقه الإسلامي، نوعًا من الربط، بالقانون الروماني وما خلّفه في المنطقة العربية من آثارٍ وأعرافٍ»[1].

كما تعكس دراسات الباحثين العرب ذاتُ الطابع الاستشراقي والتغريبي مدى التبعية الثقافيةوالفكرية للغرب. ومِنْ ثَمّ، تعتمد هذه الصورة على الفهم الخارجي لمفهوم التراث. وفي هذا الصدد، يقول محمد عابد الجابري: «**فالصورة العصرية الاستشراقوية الرائجة في الساحة الفكرية العربية الراهنة عن التراث العربي الإسلامي، سواءً منها ما كتب بأقلام المستشرقين أو ما صُنّف بأقلامٍ من سار على نهجهم من الباحثين والكتاب العرب، صورة تابعة.إنها تعكس مظهرًا من مظاهر التبعية الثقافية، على الأقلّ على صعيد المنهج والرؤية.**»[2]

أما المستشرق الفيلولوجي الغربي، فيبحث عن جذور جينيالوجية (البحث عن الأصول) للثقافة العربية الإسلامية، فيُعيدها إلى مصادر يونانية أو هندوأوروبية. ويعني هذا أنّ «**المستشرق المغرم بالتحليل الفيلولوجي، فهو عندما يتجه إلى الثقافة العربية الإسلامية، بنظرته التجزيئية، لا يعمل على ردّ فروعها وعناصرها إلى جذورٍ وأصولٍ تقع داخلها، أو على الأقلّ مقروءةٍ بتوجيه من همومها الخاصة، بل هو يجتهد كلَّ الاجتهاد في ردّ تلك الفروع والعناصر إلى أصولٍ يونانيةٍ، أو عندما تعوزه الحجة إلى أصول هندوأوروبيةٍ، الشيء الذي يعني المساهمة، ولو بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، في العملية نفسها، عملية خدمة «النهر الخالد»**، نهر الفكر الأوروبي الذي نبع أوَلَّ مرةٍ من بلاد اليونان»[3].

أما المستشرق الذي يستخدم المنهج الذاتوي في دراساته وأبحاثه، فيميل إلى شخصياتٍ معينةٍ، فيتعاطف معها دفاعًا ومناصرةً ومآزرةً، من

(١) محمد عابد الجابري: (التراث ومشكل المنهج)، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص:٨٠.

(٢) عابد الجابري: نفسه، ص:٨١.

(٣) عابد الجابري: نفسه، ص:٨٠-٨١.

دون أن يُدليَ في ذلك بحججٍ موضوعيةٍ تُرجِّح وجهة نظره الصائبة، وتُقنعنا بأطروحتهالفكرية، أو تصوراته الحِجاجيّة. وفي هذا السياق، يقول محمد عابد الجابري: «**أما المستشرق صاحب المنهج الذاتوي فإنه، على الرغم من تعاطفه مع بعض الشخصيات الإسلامية، كتعاطف ماسينيون مع الحلّاج، أو هنري كوربان مع السُّهروردي، فإنّه يبقى مع ذلك مُوجَّهًا من داخل إطاره المرجعي الأصلي، إطار المركزية الأوروبية، مشدودًا إليه، غيرَ قادرٍ ولا راغبٍ في الخروج عنه، أو القطيعة معه. إنّه يتمرد على حاضره الأوروبي، يتمسّك بماضيه، فيعيشه رومانسيًّا عبر تجربة هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات الروحانية في الثقافة العربية الإسلامية. وقد يذهب إلى أبعدَ من هذا فيطالب، من خلال تلك التجربة، استعادة روحانية الغرب مما لدى الشرق.**»[1]

ويعني هذا أنّ المستشرق الغربي حينما يطبّق المنهج الذاتويّ في تعامله مع التراث العربي الإسلامي، فإنّه ينطلق في ذلك من رؤيةٍ رومانسيّةٍ حالمةٍ قائمةٍ على الانبهار بسحر الشرق، والاندهاش بعجائبه الخارقة، كما تتعشعش في مخيلته الإثنوغرافية أو الفانطاستيكية.

وخلاصة القول، فللاستشراق إيجابياتٌ عديدةٌ لا يمكن إغفالها في ميدان البحث العلميّ الأكاديميّ، وله سلبياتٌ كثيرةٌ ينبغي التوقّف عندها لدحضها وردّها بشكلٍ علميٍّ مقنعٍ.

وتتحدّد سلبيات الاستشراق الغربيّ في كونه استشراقًا براغماتيًّا مَنفعيًّا، هدفه الأساس هو العدوان على الشعوب الآمنة التي لا تريد حروبًا، ولا معاركَ، ولا صراعاتٍ طاحنةً. ويعني هذا أنّ الاستشراق الغربيّ كان في خدمة الاستعمار من جهةٍ، ودعم الرأسماليّة المتوحّشة من جهةٍ أخرى. لذا، اتخذ الاستشراق صبغةً ماديّةً ابتزازيّةً وارتزاقيّةً بحتةً.

وأكثر من هذا فلقد كان الهدفُ الدينيُّ الغرضَ الرئيس للاستشراق الغربي بصفةٍ عامةٍ، والاستشراقُ اليهوديُّ الصهيونيُّ بصفةٍ خاصّةٍ، بتشويه الإسلام والمسلمين، والحطّ من الحضارة العربية الإسلامية، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم الربانية، ومحاولة طمسها في نفوس الشباب، باستخدام شتّى

(١) عابد الجابري: نفسه، ص:٨١.

الطرائـق اللعينـة لصـدّ هـؤلاء عـن ديـن الإسـلام، وجرّهـم إلى المسـيحية تبشـيراً وتنصـيراً. ومـن ثَـمّ، فلقـد كان الاسـتشراق، في عمومه،ذاتيًّـا متحيِّـزًا يميـل إلى الأهـواء والأمزجـة الشـخصية، ولم يكـن اسـتشراقًا علميًّـا أكاديميًّـا موضوعيًّـا هدفـه البحـث مـن أجـل البحـث، مـع اسـتثناءاتٍ قليلـةٍ جـدًّا.

إذاً، مـن سـلبيات الاسـتشراق نزوعـه إلى خدمـة أغـراضٍ دينيـةٍ دنيئـة، وخدمـة الاسـتعمار الرأسـمالي أو الاشـتراكي، والاهتـمام بالتبشـير والتنصـير عـلى حـدٍّ سـواءٍ، والدفـاع عـن الحركـة الصهيونيـة، والهيمنـة عـلى الشـعوب الضعيفـة، وإشـعال الفـتن والمعـارك والحـروب بـين المسـلمين، وتغريـب الشـعوب العربيـة والإسـلامية عـلى مسـتوى الأعـراف والعـادات والتقاليـد والموضـات والمناهـج والأفـكار والسياسـات الداخليـة والخارجيـة.

عـلاوةً عـلى ذلـك، فلقـد كان المسـتشرقون الغربيـون يفضّلـون دائمـا المنتـج الغـربي عـلى المنتـج العـربي الإسـلامي بطريقـةٍ متحيِّـزةٍ واضحةٍلإشـعار المسـلمين بضعفهـم عـلى جميـع الأصعـدة والمسـتويات، وتفـوّق العقـل الغـربيّ في كلِّ شيءٍ. و «**مِـن المبشِّريـن نفـرٌ يشـتغلون بـالآداب العربيـة والعلـوم الإسـلامية أو يسـتخدمون غيرهـم في سـبيل ذلـك، ثـم يرمـون كلهـم مـما يكتبـون إلى أن يوازنـوا بـين الآداب العربيـة والآداب الأجنبيـة، أو بـين العلـوم الإسـلامية والعلـوم الغربيـة (التـي يعدّونهـا نصرانيـة؛ لأنّ أمـم الغـرب تديـن بالنصرانيـة) ليخرجـوا دائمًـا بتفضيـل الآداب الغربيـة عـلى الآداب العربيـة والإسـلامية، وبالتـالي إلى إبـراز نواحـي النشـاط الثقـافي في الغـرب وتفضيلهـا عـلى أمثالهـا في تاريـخ العـرب والإسـلام. ومـا غايتهـم مـن ذلـك إلا تخـاذُلٌ روحـيٌّ وشـعورٌ بالنقـص في نفـوس الشرقيـين وحملهـم مـن هـذا الطريـق عـلى الرضـا بالخضـوع للمدنيـة الماديـة الغربيـة.**»[1]

يتحـول هـذا الاسـتشراق مـن خطـابٍ معـرفيٍّ موضوعـيٍّ إلى خطـابٍ سـياسيٍّ كولونيـاليٍّ ذاتيٍّ ومصلحـيٍّ.

وفي المقابـل، تتمثـل إيجابيـات الاسـتشراق، عـلى الرغـم مـن كـثرة سـلبياته، في كـون المسـتشرقين الغربيّـين قـد أسـدوا خدمـاتٍ جليلـةً وعظيمـة للـتراث

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٣م، ص:١٧.

العـربي الإسـلامي قديمًـا وحديثًـا، بتحقيـق النصـوص والمتـون وأمّهـات المصـادر، بتوظيـف مناهـجَ علميـةٍ معـاصرةٍ تجريبيـةٍ موضوعيـةٍ، مـع الاعـتراف بأفضليـة العـرب في كثـيرٍ مـن ميادِيـن اللغـة، والمعرفـة، والعلـم، والآداب.

وخلاصـة القـول، يتبـيّن لنـا، مِـمّا سـبق ذكـره، أنّ الاسـتشراق عبـارةٌ عـن حركةٍ فكريـةٍ وعلميـةٍ غربيـةٍ تبشـيريةٍ وتنصيريـةٍ وتشـكيكيةٍ بامتيـازٍ، هدفهـا دراسـة الـشرق بغيـة فهـم حضارتـه مـن جميـع جوانبهـا الماديـة والمعنويـة والرمزيـة، واستكشـاف مواطـن قوتهـا وضعفهـا. ومِـن ثَـمّ، كان الاسـتشراق في خدمـة الاسـتعمار الغـربي مـن جهـةٍ، وخدمـة الكنيسـة مـن جهـةٍ أخـرى.

ولم يكـن الاسـتشراق كلـه سـلبيًّا، بـل كانـت هنـاك دراسـاتٌ اسـتشراقيةٌ علميـةٌ موضوعيـةٌ أنصفـت العـرب والمسـلمين عـلى حـدٍّ سـواءٍ، وقـد تضمّنـت كثـيرًا مـن الفضائـل الإيجابيـة التـي كان يتميّـز بهـا الإنسـان العـربي المسـلم. كـما رصـدت مختلـف الآثـار التـي بصمـت بهـا الحضـارة العربيـة الإسـلامية نظيراتهـا مـن الحضـارات الأخـرى، بمـا فيهـا الحضـارة الغربيـة نفسـها.

المبحث الثاني: مفهوم الاستمزاغ

يـدل مفهـوم الاسـتمزاغ (Berbérisme/Amazighisme) عـلى تلـك الحركـة الفكريّـة والثقافيةالأمازيغيـة ذات الطابـع السـياسي والإيديولوجـي والهويّـاتي التـي ظهـرت بشـمال إفريقيـا، وبالضبـط في منطقـة تامازغـا، للدفـاع عـن قضايـا الأمازيغيينـأو البربـر، والتعريـف بحضارتهـم، والتشـبث بلغتهـم التـي تسـتعمل كتابـة تيفينـاغ. ويعنـي هـذا أن البربـر يعرفـون باللغة الأمازيغيـة التي كان يسـتعملها أهـل تامازغـا، أو سـكان شـمال إفريقيـا، وهـي لغـة التواصـل الشـفويّ الحـيّ. وهـي أيضـا أداةٌ للتعبـير الكتـابيٍّ، وتسـتعين بمجموعـةٍ مـن الحـروف الأبجديـة التـي تسـمى بتيفينـاغ، وقـد وُجـدت مثبتـةً عـلى جـدران الكهـوف والمغـارات والجبـال،ولا سـيما في منطقـة الطـوارق.

وكان أهـل البـوادي يتحدثـون بالأمازيغيـة أكـثر مـن أهـل المـدن، بعـد أن أُحتُلّـت منطقـة تامازغـا مـن قِبـل المحتـلّ الرّومـانيّ الـذي فـرض اللغـة اللاتينيـة لغـةً رسـميةً عـلى السـاكنة، ولا سـيما المثقفـة منهـا. وقـد اسـتمر أهـل تامازغا في

التواصل بلغتهم الأمازيغية المحلية إلى يومنا هذا. على الرغم من استمرار مسلسل التعريب الذي كان يهدف إلىإقصاء الأمازيغية بشكلٍ تدريجيٍّ وممنهَجٍ، وإبعادها عن الساحة الفكرية والثقافية واللسنية والإعلامية باسم الدين والإيديولوجيا السياسيّة.

ومن المعلوم أن اللغة البربرية تنقسم «**إلى لغةٍ قديمةٍ وهي اللوبية، ولا توجد بها إلا المنقوشات الصخرية؛ وإلى البربرية الوسطى، وهي من القرن الثالث الهجري إلى السابع، ويوجد بها كتاب (المدونة في الفقه الأباضي) لابن غانم، ويوجد بها قاموسٌ بربريٌّ عربيٌّ بجزيرة جربة؛ والبربرية الحديثة، وهو نحو ثلاثين لهجةً بين شماليةٍ وجنوبيةٍ، يوجد منها بمصر لهجة واحةٍ، هي سيوة المعروفة بواحة عمون، وهذه اللهجات منتشرةٌ بليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وجزر الكناري.**[1]»

ومن جهةٍ أخرى، يمكن الحديث -كذلك- عن فروعٍ لغويةٍ أمازيغيةٍ ثلاثةٍ:

- الزناتية (تاريفيت): ويتكلم بها سكان منطقة الريف المغربية، وسكان بعض المناطق الأطلسية، والبرابرة الليبيون، والتونسيون، والجزائريون ما عدا منطقة القبائل؛
- المصمودية (تشلحيت): يتكلم بها سكان الأطلس الغربي الكبير ومنطقة سوس؛
- الصهاجية (تامازيغت): يتكلم بها سكان منطقة القبائل، وسكان الأطلس المتوسط، وشرق الأطلس الكبير، وشرق الأطلس المتوسط، وناحية ملوية، وطوارق الصحراء[2].

ولقدكانت اللغة الأمازيغية أكثرَ انتشارًا في شمال إفريقيا، وقد تكلم بها الليبيون، والجيتوليون، والنوميديون، والموريون، والبربر، والأمازيغ... وتُعدُّ أبجديتها الخطية، إلى جانب الأبجدية الإثيوبية، أقدم كتابةً في تاريخ الإنسانية. وتنتمي الأمازيغية إلى الفصيلة السامية-الحامية، وقد استخدمها

(١) عثمان الكعاك: البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، ص:١٠٠-١٠١.

(٢) عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره و قضاياه، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص: ١٦.

السـكان في خطبهـم المختلفـة، ومحادثاتهـم اليوميـة، وقدّاسـهم الدينـي، وكتابتهـم عـلى النقـوش والجـدران. وعندمـا فتـح العـرب المسـلمون إفريقيـة (شـمال إفريقيـا) وجـدوا البربـر محافظـين عـلى لغتهـم. والشـاهد عـلى ذلـك مجموعـةٌ مـن النقـوش والصفائـح التـي رسـمت عليهاحـروف تيفيناغ. وأصبحت الأمازيغيـة - اليـوم- لغـة التواصـل اليومـي في المغـرب، والجزائـر، وتونـس، وليبيـا، وجنـوب مـصر، وجـزءٍ مـن إفريقيـا السـوداء (مـالي، والطـوارق، والنيجـر، وبوركينـا فاسـو...).

هـذا، ولقـد «**نطـق بهـذه اللغـة البربـر اللوبيـون المعـاصرون منـذ 35 قرنًـا. وتحـدّث بهـا أهـل برقـة القدمـاء الذيـن عرفهـم اليونـان «قرينـي»**». وهـي لغـة الجيتوليـين والنوميديـين والموريتانيـين الذيـن امتزجـوا بالقرطاجنيـين مـن القـرن التاسـع إلى القـرن الثـاني قبـل الميـلاد، وقـد اصطـدم بهـم الرومـان أكـثر مـن اصطدامهـم بالقرطاجنيـين أنفسـهم. وفـرض هـؤلاء الرومـان لغتهـم اللاتينيـة عـلى البربـر بواسـطة المدرسـة والإدارة والكنيسـة، ودام سـلطان الرومـان ثمانيـة قـرونٍ، فلـما اضمحـلّ كانـت البربريـة قائمـةً، وعـرف الرومـان هـذه اللغـة البربريـة، وميّـزوا بينهـا وبـين البونيقيـة، بـل عرفـوا أنهـا تنقسـم منـذ ذلـك العهـد إلى عـدة لهجـاتٍ، وحدّثونـا عـما كانـوا يلاقونـه مـن مصاعـبَ شـائكةٍ في تعلُّمهـا ونفورهـم مـن تعاطـي دراسـتها. فقـال الكاتـب الرومـاني فلينـوس القديـم متحدّثًا عـن البربـر: «**يتعذّرعـلى حناجـر غـير حناجـر البربـر أن تسـتطيع النطـق بأسـماء قبائلهـم ومدنهـم.**»

ولمـا فتـح العـرب المغـرب سـنة 27هـ، وجـدوا هـذه اللغـة البربرية منتـشرةً في الصحـارى والجبـال والجـزر، وفي المـدن والقـرى تزاحمهـا في السـاحل الشرقـي اللغـة البونيقيـة. أي: اللغـة الفينيقيـة المتأثـرة باللهجـات والنطـوق البربرية.»[1]

ولقـد أُسـتعملت اللغـة البربريـة، بعـد الفتوحـات الإسـلامية، بـين الأوسـاط الثقافيـة، والسياسـية، والاجتماعيـة، والاقتصاديـة. وفي هـذا، يقـول عثـمان الكعـاك: «**وبقيـت هـذه اللغـة بعـد الإسـلام، وبعـد إسـلام البربـر الـذي حسـن منـذ القـرن الأول، وعدلـت في الغالـب عـن الخـط اللـوبي القديـم، وكتبـت**

(١) عثمان الكعاك: نفسه، ص:٩٢-٩٣.

بالحـرف العـربي، كتبـت بـه تصانيفهـا الدينيـة الإسـلامية، وشـعرها وحكاياتهـا ونوادرهـا. ودرس المسـلمون هـذه اللغـة العجيبـة، وصنّفـوا كتبًـا في المقارنـة بينهـا وبـين العربيـة والعبرانيـة. وألفـوا معاجـم لهـا وللعربيـة معًـا، واعتنـى أصحـاب المعاجـم النباتيـة مـن الغافقـي إلى ابـن الجـزار إلى ابـن البيطـار بإيـراد التسـميات البربريـة للنباتـات التـي يصفونهـا. وبقيـت هـذه اللغـة لغـة البـلاط في الأُسر المالكة البربريّـة مـن صنهاجيـين وحفصيـين وحماديـين وزناتيـين ومرابطـين وموحديـن، بـل كان غيرهـم مـن ملـوك المغـرب يعرفهـا، فالمعـز لديـن اللـه الفاطمـي كان يتكلـم بهـا مـع زعـماء صنهاجـة وكتامـة، واسـتعملها عبـد اللـه الشـيعي في دعوتـه للفاطميـين بجبـال القبائـل وزواوة. كـما اسـتعملها المهـدي بـن تومـرت في دعوتـه بـين العـروش والعشـائر البربريـة. وبنـى بعـض الملـوك الحفصيّـين جامعًـا، ولم يكتـب عليـه اسـمه، فقيـل لـه في ذلـك، فأجـاب بالبربريـة «يسـنت ربي»، أي: قـد علـم اللـه ذلـك. ودخلـت مفـرداتٌ بالبربريـة في اللهجـات العربيـة بالمغـرب والأندلـس وصقليـة منهـا «**الكرومـة**» و«**الفكـرون**» وغيرهـا.[1]»

وإبّـان الاحتـلال الأجنبـي لشـمال إفريقيـا، دافـع الفرنسـيّون عـن الأمازيغيـة وشـجّعوها، وبنـوا لهـا مـدارسَ وثانويـاتٍ ومعاهـدَ وجامعـاتٍ، ولا سـيما بعـد صـدور الظهـير البربـريّ سـنة 1930م. بيـد أنهـم اختـاروا الحـرف اللاتينـي وسـيلةً للكتابـة والبحـث والتنقيـب، ومنعـوا الحـرف العـربي، وكان غرضهـم الأسـاس مـن ذلـك هـو فصـل البرابـرة عـن إخوانهـم العـرب.

وقـد تضاءلـت قيمةاللغـة الأمازيغيـة مـع مـرور الوقـت، وتراجعـت مكانتهـا بـين السـكان الأمازيـغ أنفسـهم بسـبب مسلسـل التعريـب الـذي نهجتـه الدولـة المغاربيـة بعـد الاسـتقلال مبـاشرةً؛ إذ عمـدت لجنـة التعليـم في المغـرب -مثـلا- إلى سـنّ سياسـة المبـادئ الأربعـة، وهـي: التعميـم، والمغربـة، والتوحيـد، والتعريـب. ومـن ثَـمّ، أصبـح التعليـم المغـربيّ، مـن تلـك الفـترة، خاضعًـا لهيمنـة اللغـة العربيـة، وهيمنـة اللغـات الأجنبيـة. لـذا، أضحـت اللغـة الأمازيغيّـة منبـوذةً سياسـيًّا، واجتماعيًّـا، ودينيًّـا، وثقافيًّا.ومُنـع تداولهـا في مرافـق الدولـة. كـما مُنـع الدفـاع عنهـا ثقافيًّـا أو حضاريًّـا، وخاصَّـةً في السـتينيات والسـبعينيات والثمانينيـات مـن القـرن المـاضي.

(١) عثمان الكعاك: نفسه، ص:٩٣-٩٤.

عـلاوةً عـلى ذلـك، فلقـد تخلّـت بعـض القبائـل الأمازيغيـة عـن عاداتهـا وتقاليدهـا وأعرافهـا وحضارتهـا وثقافتهـا التـي كانـت ترتبـط باللغـة الأمازيغيـة، فاندمجـت في قبائـلَ عربيـةٍ، وانصهـرت فيهـا جزئيًّـا أو كُليًّـا. أضـف إلىذلـك مـا يقـوم بهالإعـلام الإذاعـيّ والمـرئيّ مـن دورٍ كبـيرٍ في نـشر اللغـة العربيـة، وترويـج باقـي العاميـات المتفرعـة عـن هـذه اللغـة، دون الاهتـمام باللغـة الأمازيغيـة قيـد أنملـة. ناهيـك عـن التهميـش المقصـود الـذي مـورس ضـد الأمازيغيـة سياسـيًّا، واقتصاديًّـا، واجتماعيًّـا، وثقافيًّـا، وتاريخيًّـا، وحضاريًّـا، ونفسـيًّا؛ مـا أثّـر في مسـتواها التـداوليّ والتواصـليّ وقيمتهـا المعرفيـة. عـلاوةً عـلى ذلـك، فلقـد بقيت اللغـة الأمازيغيـة حكـرًا عـلى الأجـداد، دون الأبنـاء والأحفـاد الذيـن تخلّـوا عـن هـذه اللغـة بالتدريـج لصالـح اللغـة العربيـة، أو لصالح اللغـات الأجنبية المنافسـة الأخـرى بسـبب هجـرة السـاكنة الأمازيغيـة نحـو الضفـة الأخـرى. بالإضافـة إلى طابعهـا الشـفوي الـذي كان عامـلاً مـن عوامـل ضيـاع إرثٍ حضـاريٍّ أمازيغـيٍّ كبـيرٍ في مختلـف العلـوم والمعـارف والفنـون.

ولا يعنـي هـذا أنّ مسلسـل التعريـب حديـثُ العهـد، فلقد مـورس منـذ القديم، مـع تأسـيس أولى دولـةٍ مغربيـةٍ هـي دولـة الأدارسـة،فتطوّر مسلسـل التعريـب مـع باقـي الـدول المغاربيـةإلى يومنـا هـذا، فقـد كانـت سـلطة الدولـة تقـوم عـلى النَّسـب الشريـف، والدفـاع عـن الديـن الإسـلامي، وحمايـة اللغـة العربية،وتثبيـت وحـدة الأمـة.

وعـلى الرغـم مـن التضييـق الـذي عانـت منـه اللغـة الأمازيغيـة، فإنهـا لغـةٌ تواصُليّـةٌ حيّـةٌ بامتيـاز. وفي هـذا الإطـار، يقـول محمـد شـفيق: «**والواقـع أنّ اللغـة الأمازيغيـة لا تـزال حيّـةً، محافظـةً عـلى كيانهـا الـذاتي الـذي لا يتجلى بوضـوحٍ تامٍّ وبـكلِّ عنـاصره إلا لمـن كلّـف نفسـه قليـلاً مـن الاهتـمام باللهجـات ومـا بينهـا مـن التداخـل والتكامـل، منحهـا وجهـة التـماس العوامـل الموحـدة، لا وجهـة التـماس العوامـل المفرقـة بينهـا، كـما كان يفعـل عـددٌ مـن الباحثـين الفرنسـيين. واللغـة الأمازيغيّـة، في وضعهـا الحـالي، أي: بصفتهـا لغـةً حيـةً يتخاطـب بهـا النـاس، في تلقائيـةٍ وعفويـة، قابلـةٌ للانتعـاش والنمـوّ والازدهـار، ولا سـيما أنّ لهـا نظامًـا اشـتقاقيًّا مَرِنًـا جـدًّا، يتفاعـل فيـه الاشـتقاق الأصغـر والاشـتقاق الأكـبر مـع النحـت**

والتركيب المزْجي تفاعلاً يُضاعف إمكانات الخلق المعجمي يسير المنال. وبدراسة هذا النظام في تفاصيله، سيتمكّن الخبراء من فكّ ألغاز النقوش القديمة التي استغلق أمرها عليهم حتى الآن، ومن تسليط بعض الأضواء على خفايا تاريخ إفريقيا الشمالية.»[1]

والآن، لقد انتعشت اللغة الأمازيغية نسبيّا، واستفادت كثيراً من الدعم الرسمي والسياسي والجماهيري والمؤسساتي؛ إذ شكّل خطاب 20 غشت/آب 1994م منعطفًا سياسيًّا نوعيًّا في تعامل السلطة مع اللغة الأمازيغية. فلقد اعترف العاهل المغربي الحسن الثاني بضرورة تدريس اللغة الأمازيغية في المدرسة المغربية إلى جانب اللغات الأجنبية الأخرى. لكن ذلك الطموح لم يتحقّق فعليًّا إلا بعد خطاب أجديرفي 30 يوليوز/يوليو سنة 2001م، وتأسيس المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية في 17أكتوبر/كانون الأوّل 2001م، وميلاد الكونغرس العالمي الأمازيغي سنة 1995م، وانطلاق تعليم الأمازيغية في الموسم الدراسي 2003-2004م، وتأسيس القناة الأمازيغية الثامنة سنة 2008م، ودسترة اللغة الأمازيغية بشكل رسميٍّ في الدستور الجديد للمغرب، إلى جانب اللغة العربية، مع خطاب 09 مارس/آذار 2011م. علاوةً على تأسيس مسالكَ وشعبٍ ووحداتٍ دراسيةٍ جامعيةٍ في مادة الأمازيغية في كلٍّ من: أكادير، والرباط، ووجدة، وتطوان، وفاس،ومكناس، والناظور... إضافةً إلى توفير عددٍ من المناصب المالية لتأهيل أطر الابتدائي في اللغة الأمازيغية،في المراكز الجهوية لمهن التربية والتكوين بكلٍّ من: أكادير، ومكناس، والناظور.

وعليه، لم تظهر الدراسات الاستمزاغية في المغرب بصفةٍ خاصة، وإفريقيا الشمالية بصفةٍ عامة، إلا في أواخر القرن التاسع عشر مع الباحثين الفرنسيين والإسبان المستمزغين بالخصوص كاللساني الفرنسيريني باسيٍّ (René Basset) الذي يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدراسات البربرية، ومع مجموعةٍ من المفكرين والمبدعين والأساتذة كميلود معمّري، وكاتب ياسين، ومحمد خير الدين، ومحمد شفيق، وأحمد بوكوس، ومحمد الشامي، وسالم شاكر،

(١) محمد شفيق: البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، ص:٦٠.

وعبد الله بونفور... بيد أنّ الجغرافيا اللسانيّة والدراسات المعمّقة حول اللغات واللهجات في شمال إفريقيا لم تتطور إلا في بداية القرن العشرين مع باسيِّ (A. Basset) الذي مسح منطقة شمال إفريقيا لسانيّا ولغويّا وجغرافيّا، من الشمال إلى الجنوب، مرورًا بالجنوب المغربي، ما بين 1926م و1949م.

فلقد درس هذا الباحث المستمزغ (Le berbériste) أمازيغية الجزائر والطوارق، وأمازيغية ليبيا وتونس وموريطانيا، وأمازيغية جنوب المغربي، وخاصةً أمازيغية فجيج. وتتسم أبحاث باسيِّ بكونها دراساتٍ ميدانيةً إجرائيةً أرشيفيةً، كان الهدف منها تسجيل جميع اللهجات البربرية وتدوينها وتوثيقها، مع دراسة ثوابتها ومتغيراتها.

ويمكن الحديث عن مجموعةٍ من المقاربات التي خضعت لها اللغة الأمازيغيةكالمقاربة الكولونيالية، والمقاربة البيداغوجية، والمقاربة العلمية الأكاديمية، والمقاربة الصحفية الانطباعية.

وعليه، فالدراسات الاستمزاغية التي أنجزت منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى سنوات السبعين من القرن الماضي هي دراساتٌ استمزاغيةٌ عسكريةٌ توثيقيةٌ واستخباراتيةٌ. كان الهدف منها قراءة الجهة المرصودة لغويًّا، وأنتروبولوجيًّا، وجغرافيًّا، ولغويًّا، واقتصاديًّا، مع رصد نقط القوة والضعف لاستغلالها واستثمارها سياسيًّا وعسكريًّا لصالح الدولة الحامية الغازية. وكانت معظم الدراسات الكولونياليّةتتّخذ، في تعاملها مع اللّغات واللهجات الأمازيغيّة،شكلَ مقاربةٍ بيداغوجيةٍ تعليميةٍ وتعلميةٍ ذاتِ أبعادٍ نحويّةٍ تداوليّةٍ، كما نفهم ذلك من خلال العناوين الموظفة في هذه الدراسات اللسانية والنحوية: (ملاحظات، ومقرّر، وملخّص، وموجز، ودراسة، وبحث، ومعجم)، (Notes, Manuel Esquisse,Etude,،Glossaire...).

ومن جهةٍ أخرى، فلقد كانت هناكَ دراساتٌ استمزاغيّةٌ علميّةٌ وموضوعيّةٌ الغرض منها هو التعريف بالحضارة الأمازيغية، واستعراض تاريخها وآدابها وعلومها وفلسفاتها، سواءً أكَتَبها مستمزغون أجانبُ أم مغاربيون.

وخلاصة القول، يحيل مفهوم الاستمزاغ على تلك الحركات والجمعيات الثقافية والعلمية الأمازيغية المختلفة التي تُعنى بإنجاز دراساتٍ وأبحاثٍ، في

الجامعة أو خارجها، حول اللغة الأمازيغية وآدابها وحضارتها وثقافتها، سواءً أكان ذلك من قبل الباحثين المغاربيين كسالم شاكر، ومحمد الشامي، وقاضي قدور، وأحمد بوكوس، ومحمد المدلاوي، وأحمد أكواو، وبلعيد بودريس، وفاطمة بوخريص، وعائشة بوحجار، والحسين المجاهد، وهباز بوجمعة، وفاطمة صدّيقي، ومحمد شفيق، وجميل حمداوي، وعبد الهادي أمحرف، وميمون حمداوي، ومحمد شطاطو، وعبد العزيز علاتي، وعبد الرحمن العيساتي، ووفاء طنجي، ومحمد الأيوبي، وميشيل كيطو، ومحمد بلحرش، وحميد سويفي، ونور الدين أمروس، ومصطفى العدك، وحسين فرحاض، وحسن بنعقية، وحميد سويفي، وأمينة الفقيوي، وعبد الله بونفور، وإبراهيم أخياط، وعلي صدقي أزايكو، وأحمد عصيد، وجواد الزوبع...

أم كان ذلك من قبل الباحثين المستمزغين الأجانب، بما فيهم الباحثون في جامعات فرنسا الذين تخصصوا في دراسات الأمازيغية بمختلف مكوّناتها، مثل: أندري باسيِّ (A.Basset)، وهنري باسيِّ (H.Basset)، وليونيل غالان (L.Galand)، وروبير أسبينيون (R.Aspinion)، وفرناند بينتوليلا (Fernand Bentolila)، وبيارناي (S.Biarnay)، ودافيد كوهن (D.Cohen)، وجان ماري كورتاد (Jean-Marie Cortade)، وإميل لاووست (Emile Laoust)، إلخ...

المبحث **الثالث:** مفهوم الاستعراب

إذا كان الاستشراق (Orientalisme) يدرس كلّ ما يتعلق بالشرق من حضارةٍ وثقافةٍ ولغةٍ وتقنيةٍ، وإذا كان الاستمزاغ ((Berbérisme ينصب أيضا على الحضارة الأمازيغيّة الموجودة بشمال إفريقيا بالدّرس والفحص والتحليل، فإن الاستعراب (Arabisme) ينكبّ على دراسة كلّ ما يتعلق بحضارة المسلمين في الأندلس أدبًا، وفكرًا، وعلمًا، ولغةً، ومعرفةً. ومن ثَمّ، فلقد ركّز المستعربون كثيراً على الأدب الأندلسيّ، واستخدموا في ذلك اللغة العربية تارةً، واللغة الإسبانية واللغات اللاتينية تارةً أخرى. وقد ظهر الاستعراب في القرن التاسع عشر الميلادي بإسبانيا من أجل فهم المنتج العربي بالأندلس ودراسة قيمه وإبداعه، وتبيان أسباب ذلك. لذلك، التجأ الباحثون الأكاديميون والأساتذة الجامعيونإلى تحقيق المخطوطات العربية،

وتشريح الفكر العربي بالأندلس، وتبيان أسرار تفوّق العرب المسلمين في مجالات العلم والمعرفة والفن والفكر والأدب.

ويرى الباحث المغربي مصطفى الغديري أن الاستعراب الإسباني «**بدأ حركةً ثقافيةً علميةً أكاديمية منصبة بالدرجة الأولى على دراسة التراث الأندلسي، بكل أشكاله، وما له علاقة بهذا التراث في الزّمان والمكان على اعتباره يمثل المصادر الأساسية لدراسة ومعرفة إسبانيا المسلمة، وهي حركةٌ حديثةُ العهد يعود تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر قامت بمجهوداتٍ فرديةٍ وبدوافعَ أكاديميةٍ في الدرجة الأولى بين الجامعيين في بعض الجامعات الإسبانية، وخاصةً جامعة مدريد وجامعة غرناطة وجامعة سرقسطة. بينما تهتمّ الحركة الاستشراقية بكل ما هو مشرقيٌّ وشرقيٌّ، أي ما أنتجته قرائح أبناء منطقةٍ جغرافيةٍ تمتدّ من شمال إفريقيا إلى الشرق الأقصى تدعمه مختلف المؤسسات السياسية والعسكرية بغية معرفة الفكر الشرقيّ وتراثه لتسهيل مهمة التدخل العسكري والاقتصادي والإيديولوجي شارك فيها الأكاديميون من العسكريين والسياسيين وغير الأكاديميين بإيعازٍ من الأنظمة الأوروبية الاستعمارية التي كانت تسعى إلى التوسّع الاستعماريّ. لهذا السبب نجد أكثر الدارسين الإسبان يرفضون أن يُطلق عليهم لفظ المستشرق**[1]»[2].

إذاً، لقد بدأ الاهتمام بالدراسات الأندلسية من قِبل الباحثين والدارسين الإسبان منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؛ بل منذ القرن الثامن عشر الميلادي مع خوان أندريس (Juán Andrés) الذي اهتم بآثار الحضارة العربية الإسلامية في إسبانيا، ولاسيما في موسوعته (الآداب العالمية وتطوّرها)، وتبعه في ذلك إستيبان أرتياغا (Esteban Arteaga) في كتابه (حول تأثير العرب في نشأة الشعر الحديث في أوروبا)، ثم خوسي أنطونيو كوندي (Jose Antonio Conde) الذي ألّف كتابًا بعنوان (تاريخ الحكم العربي في

(١) انظر الحوار مع المستعرب الإسباني فيديريكو أريوس، جريدة العلم عدد١٩٩٦/١١/٢٦م، والحوار الذي أُجري مع المستعرب الإسباني بيدرو مونتابيث في الملحق الثقافي لجريدة العلم، عدد ٢٠٠٢/٠٧/٢٧م.

(٢) - مصطفى الغديري: (الحركة الاستعرابية الإسبانية /مدرسة كوديرا نموذجًا)، الخطاب الاستشراقي في أفق العولمة، يومٌ دراسيٌّ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم ٧٦، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م، ص:٨١ (الهامش).

إسبانيا)، ثم غاسبار ماريا دي نابا ألباريث (Gaspar maria de Nava Alvarez) الذي ترجم مختاراتٍ من الشِّعرين العربي والتركي إلى اللغة القشتالية.

وبعد ذلك، تطوّر الاستعراب عن طريق الاهتمام بالمخطوطات العربية، وتأسيس الكراسي الجامعية لتدريس اللغة العربية وآدابها وثقافتها وحضارتها، وإنشاء المكتبات لجمع التراث العربي توثيقًا، وأرشفةً، وتصنيفًا، وتحقيقًا، وبحثًا، ودراسةً. ويُعدُّ باسكوال دي غايانغوس (Pascual de Gayangos) مؤسس الدراسات الاستعرابية بإسبانيا، ومؤسس المدرسة الاستعرابية المكتملة العناصر والأركان، فلقد كوّن أجيالاً عديدةً من المهتمين بالتراث الأندلسي. ولقد اعتنى كثيراً بتحقيق المخطوطات الأندلسية في كتابه (تاريخ الأُسر الإسلامية الحاكمة بالأندلس) باللغة الإنجليزية في مجلدين ضخمين[1]. «**وإثر إنجازه هذا العمل نودي عليه ليكون أستاذًا لكرسي اللغة العربية بجامعة مدريد حيث قام بتدريس اللغة العربية على أمد النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكوّن خلالها مجموعة من الطلبة الذين سيتخصصون في الدراسات الاستعرابية الإسبانية التي استمرت بأهم الجامعات الإسبانية، وما يزال أثرهاإلى اليوم بسبب تأثيره في طلبته ورعايته الأبوية لهم.**[2]»

ومن أبرز تلامذة باسكوال فرانسيسكو كوديرا إي زيدن (Franciscus Codera y zaydin) الذي يُعدّ المؤسس الحقيقي للمدرسة الاستعرابية التي تُسمّى بمدرسة كوديرا أو بني كوديرا (Beni Codera). في حين، أنّ باسكوال دي غايانغوس قد وضع اللبنات التمهيدية الأولى لهذه المدرسة. ومعه، انتقل الدرس الاستعرابي من مدريد إلى باقي الجامعات الإسبانية كسرقسطة، وغرناطة... وقد قرر هذا المستعرب منذ البداية أن يحقق مائة مخطوطٍ توثيقًا ودراسةً ونشرًا. وبعد ذلك، يأتي الدرس التحليلي لفهم تاريخ الأندلس وحضارتها وآدابها وثقافتها[3].

(1) -Pascual de Gayangos: History of the Mohammedan Dynasties in Spain. London 1840-1861.-

(٢) مصطفى الغديري: (الحركة الاستعرابية الإسبانية /مدرسة كوديرا نموذجا)، ص: ٨٦.

(٣) انظر الحسين الإدريسي: (مسارات التحول في مواقف المستعربين الإسبان)، الخطاب الاستشراقي في أفق العولمة، يومٌ دراسيٌّ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم ٧٦، جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م،ص:١١٩-١٥١.

ومـن أهـم طلبـة كوديـرا خوليـان ريبـيرا طاراغـو (Julián Ribera y Tarrago)، وميغـال أسـين بالثيـوس (Miguel Asin Palacios)، وخـوسي مونيـوس سـيندينو (José Mońoz Sendino)، وميغـال أنخيـل بالانثيـا (M.Angel Gonzales Palencia)، وأورتيغـاإي غراسـيت (Ortiga Y Grasset)، ومينينديـث بيـدال (Menendez Pedal)، وسانشـيس ألبورنـوث(Albornoz Sanchez)، وداماسـو ألونسـو (Damaso Alonso)، وإيميليـو غارسـيا كوميـث(Emilio Garcia Gomez)، وفدريكـو كوريينتـي (F.Corriente)، وخبيريـت فنيـش وسـوليذاذ (Giberet Fenech Soledad)، وخواكـين بالبيـه بيرميخـو (Joaquen Valve Bermejo)، وبيـدور مونتابيـث (Pedro Moontavez)، وماريـا خيسـوس بيغـيرا (Maria Jesus Viguera)، وماريـا خيسـوس روبيـيرا ماتـا (M.Jesus Rubiera Mata)، ومانويـلا ماريـن (Manuela Marin)، واللائحـة طويلـةٌ مـن المسـتعربين الإسـبان الذيـن ينتمـون إلى مدرسـة كوديـرا الاسـتعرابية.

إذًا، لقـد أسـدى المسـتعربون الإسـبان خدمـاتٍ جـلى إلى الـتراث الأندلسـي، بتحقيـق مخطوطاتـه، ودراسـة آثـاره مـن حيـث المحتـوى والفـن والوظيفـة، وقـد درسـوا اللغـة العربيـة في جامعـات إسـبانيا، وسـعوا إلى نشرهـا بـين النخـب المثقفـة. كـما دافعـوا عـن حضـارة المسـلمين وثقافتهـم في الأندلـس بـكلِّ موضوعيـةٍ وجـرأةٍ علميـةٍ، وأشرفـوا عـلى العديـد مـن البحـوث والرسـائل والأطاريـح الجامعيـة التـي تنصـبّ عـلى دراسـة آداب الأندلسـيين وعلومهـم وفكرهـم وفنهـم. كـما أسسـوا مدرسـةً اسـتعرابيةً نموذجيـةً تُسـمَّى بمدرسـة بنـي كوديـرا[1]. ولقـد امتـدّ الـدرس الاسـتعرابي إلى الاهتـمام بالشـعر العـربي قديمـه

(١) «على الرغم من نفي بعض المستعربين الإسبان العلاقة بين مدرسة كوديرا الاستعرابية وبين حركة أو جمعية المتأفرقين الاستعمارية (Los Africanistas) التي كان همها القيام بدراساتٍ عن أوضاع شمال إفريقيا كي تساعد القوة العسكرية على الاستيلاء عليها، المغرب منها خاصةً، إلا أنه من الثابت أنّ كثيرًا من هؤلاء كانوا أعضاءً في هذه الجمعية التي تحالفت مع السياسة الاستعمارية الإسبانية في احتلال المغرب. فقد وضع هؤلاء دراساتهم في خدمة هذه السياسة، إذ كان غايانغوس، وكوديرا من المساهمين في «الجمعية الإسبانية لاكتشاف إفريقيا»، كما ساهما في تأسيس «جمعية المتأفرقين الاستعمارية».وكان خوليان ريبيرا من المؤيدين لحضور إسبانيا سلميًا في المغرب، وحين أنشأت الحكومة الإسبانية مجلسًا للتعليم في شمال المغرب عقب الحماية المشؤومة سنة ١٩١٢م كان كلٌّ من خوليان ريبيرا وأسين بالثيوس عضوًا فيه، ما يعني أنّ أعضاءً أو رؤوسًا هذه المدرسة الاستعرابية ساهموا، بمعرفتهم اللغة العربية، في التوسع الاستعماري الإسباني بالمغرب شأن المستشرقين الإنجليز الذين رسموا الطريق لبريطانيا في الاستيلاء على المشرق.» مصطفى الغديري: نفسه، ص:١٠٠-١٠١.

وحديثه من جهةٍ، والعناية بالإسلام قرآنًا وسُنّةً وعقيدةً وتاريخًا من جهةٍ أخرى.

إذاً، لقد اهتم المستعربون الإسبان بكثيرٍ من المجالات المعرفية في العصر الوسيط، كاللغة وفقهها، والتاريخ والحضارة، والأدب العربي، والفن، والعمارة، والتربية، والمهن والصنائع، والسياسة، والفقه والشريعة، والعقيدة وأصول الدين.... كما اهتمّوا كذلك بالفلسفة والتصوف والفكر الإسلامي الذي أنتجه علماء الأندلس ومفكروها إبّان العصر الوسيط، كما عند ابن طفيل، وابن رشد، وابن باجة، وابن حزم، وابن العربي على سبيل التمثيل[1].

وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت من قبل الاستعراب الإسباني، فثمة مجموعةٌ من الهِنات والسّلبيّات التي كان يتميّز بهابعض المستعربين المحسوبين على الكنيسة الكاثوليكية المسيحية، ويمكن حصرها في ما يلي:

1. الانطلاق من التصورات الإيديولوجيّة المسبقة في التعامل مع الثقافة العربية؛
2. التعصب الكنسي الأعمى، والحقد الدفين للإسلام والمسلمين؛
3. النزعة العنصرية والعرقية في التعامل مع الآخر العربي؛
4. تفضيل الإنسان الغربي على الإنسان العربي؛
5. خدمة المسيحية والتبشير النصراني؛
6. تمهيد الطريق أمام سياسة التوسع الاستعماري؛
7. إصدار أحكامٍ مسبقةٍ ومتوارثة؛
8. «**عدم الاعتراف بالثقافات الأخرى التي ساهمت في إثراء الحضارة الإيبيرية**[2] (Iberia) **كالثقافتين: العربية والعبرية. ويعني هذا أن المستعربين الإسبان قد قزّموا هاتين الحضارتين، ونفخوا كثيراً في الحضارة الإيبيرية، واعتبروها مصدرًا لا غنى عنه في تطور الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس؛**

(١) انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨٠م.

(٢) -شبه جزيرة إيبيريا(Iberia): هي المنطقة التي تضمّ كُلاً من إسبانيا، والبرتغال، ومحمية جبل طارق، وأندورا.

9. «**غياب الروح العلمية والموضوعية في التعامل مع الثقافة العربية الإسلامية؛**

10. تحميل المستعربين الإسبان العرب المسلمين المسؤولية في تخلّف الإسبان عن ركب باقي البلدان الأوروبية، ويرتسم هذا الاتهام «**في كتاباتهم ضمنيًّا، ويتراءى بين السطور**»[1].

إذا كان هناك بعض المستعربين الإسبان المتحاملين الذين ينظرون إلى العرب المسلمين نظرةً فوقيةً عدائيةً قِوامها الإقصاء والتغريب والتهميش والاستعلاء، فإنّ ثمةَ مستعربين كانوا موضوعيين في دراساتهم الاستعرابية والاستشراقية. ومن بين هؤلاء المستعربين الأجلاءخوان غويتيسولو (Juan Goytisolo) صاحب كتاب (في الاستشراق الإسباني)[2] الذي دافع كثيرًا عن الإسلام، والثقافة العربية الإسلامية، وانتقد المستعربين الإسبان انتقادًا شديدًا.

وعليه، فلقد قدّم الاستعراب الإسباني للأدب العربي بالأندلس، إلى يومنا هذا، خدماتكبرى وجلى. ولا يمكنلأيِّ دارسٍ عربيٍّ مسلم -بأيِّ حالٍ من الأحوال- إنكارُ ذلك تحت أيِّ مبرِّرٍ ذاتيٍّ، أو مُسوِّغٍ علميٍّ، أو رغبةٍ في المناظرة والجدل، أو غضُّ البصر عن تلك الجهود الجبّارة التي قام بها كبار المستعربين الإسبان على مرّ السنين، على الرغم من تحامل الكثير منهم على ذلك الأدب. فلقد قام هذا الاستعراب -فعلا- بجمع المخطوطات الأدبية الأندلسية شعرًا ونثرًا، وتوثيقها متنًا وتدوينًا وتحقيقًا وأرشفةً، وتأريخ معطياتها سياقا وتحقيبا ومرجعا، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية في مختلف لهجاتها المتنوعة، ودراستها مضمونًا وشكلاً ووظيفةً من أجل تحديد تطوّر الأدب الأندلسي، ورصد مجمل خصائصه الدلاليّة والفنيّة والجماليّة، وتبيان مختلف سياقاته التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والنفسية، والحضارية. علاوةً على ذلك،فلقد خُصّص للأدب الأندلسي بإسبانيا المكتبات العامة والخاصة، والمعاهد المتخصصة،

(١) خوان غويتيسولو: في الاستشراق الإسباني، دراساتٌ فكريةٌ، ترجمة: كاظم جهاد، نشر الفنك، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م، ص:٢٢٣.

(٢) خوان غويتيسولو: في الاستشراق الإسباني، المرجع المذكور سابقا.

والكـراسي الجامعيـة. كـما صـدرت صحـفٌ ومجـلاتٌ تُعنـى بـالأدب الأندلـسي تأريخًـا، وتصنيفًـا، ونقـدًا، وبحثًـا.

وفي الأخـير، أقـول بـكلِّ موضوعيـةٍ علميـةٍ بأنـه لـولا الاسـتعراب الإسـباني لمـا عرفنـا الكثـير عـن الأدب الأندلـسي شـعرًا ونـثرًا، ولمـا عرفنـا الكثـير عـن الدواويـن الشـعرية ومبدعيهـا المغموريـن والمشـهورين عـلى حـدٍّ سـواءٍ، ولمـا كان لدينـا إلمـامٌ كافٍ بفـنّ الموشـحات والزّجـل بشـكلٍ محكَـمٍ ومتقَـنٍ.

المبحث الرابع: مفهوم الاستغراب

يمكـن الحديـث عن اسـتشراقٍ مُضـادٍّ، أو اسـتشراقٍ معكوسٍ[1]،تـولاّه مجموعةٌ مـن الباحثـين مـن دول الجنـوب مـن جهـةٍ، ودول العـالم العـربي والإسـلامي مـن جهـةٍ ثانيـةٍ. والغـرض منـه هـو فهـم الغـرب بطريقـةٍ جيـدةٍ، وتفكيـك مركزيتـه السياسـية والثقافيـة، ونقـد أطروحاتـه الاسـتعمارية والإيديولوجيـة. ويُسـمّى هـذا الاسـتشراق المضـادّ بنظريـة مـا بعـد الاسـتعمار مـن جهـةٍ، أو علـم الاسـتغراب مـن جهـةٍ أخـرى.

بيـد أن هنـاك مـن يرفـض مصطلـح الاسـتغراب كالباحـث المغـربي محمـد خروبـات، ويفضّـل مصطلـح الفكـر الإسـلامي الـذي يتنـاول بـدوره قضيـة الاسـتشراق بالـدرس، والتحليـل، والتقويـم. وفي هـذا، يقـول الباحـث: «**وأعتقد أن الملائـم للموضـوع هـو الفكـر الإسـلامي، وقـد كنـا نـدرس في الجامعـة المغربيـة مـادةً تسـمى بـ«الفكـر الإسـلامي في مواجهـة الحضـارة الغربيـة»**، وقـد تغيّر اسـمها بحكـم مـا طـرأ عـلى الجامعـة المغربيـة مـن إصلاحـاتٍ متتاليـة، أعتقـد أن الفكـر الإسـلامي بهـذا النعـت كافٍ جـدًّا للقيـام بهـذه المهمـة، فهـو ينطلـق مـن القـرآن الكريـم ومـن السـنة النبويـة وأصـول الإسـلام الأخـرى، كـما يسـتوعب مـا كتبـه المفكـرون والمثقفـون حـول الغـرب والحضـارة الغربيـة والاسـتشراق والاسـتعمار والتنصـير والتبشـير، ولا شـك في أن المكتبـة الإسـلامية حافلـةٌ بشـتّى المؤلفـات في هـذا المجـال، كـما يسـتوعب مـا كتبـه الغربيـون حـول الـتراث الإسـلامي والحضـارة الإسـلامية لأنـه مثلـما أنّ هنـاك فكـرًا غربيًـا يواجـه الإسـلام والحضارة

(١) -صادق جلال العظم: الاستشراق والاستشراق معكوسًا، الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م.

الإسلامية فهناك فكرٌ إسلاميٌّ يواجه الفكر الغربي والحضارة الغربية، ثم إنّ هذا الفكر يستفيد من تجارب الماضين في تعيين الشبه والطعون، وترتيبها وبيان كيفية الرد عليها واستلهام طرائقهم ومناهجهم، وله القدرة على استقراء مشاكل الواقع ومعاينة ما يجري بين الحضارات والثقافات والسياسات. وكثير، ممن تكلم عن الاستشراق من المفكرين العرب المسلمين وباسم الفكر الإسلامي، عالجوا قضايَا فكريةً وثقافيةً وحضاريةً، وردّوا على شبهات المستشرقين وطعونهم، وحاوروا الكثير منهم، كما سجّلوا زياراتٍ لأوروبا، وحاضروا في جامعاتٍ ومراكزَ فيها.»[1]

ومن هنا، يهدف الاستغراب إلى فضح الخطاب الاستعماري الغربي، وتفكيك مَقُولاته المركزيّة التي تعبر عن الغطرسة والهيمنة والاصطفاء اللوني والعرقي والطبقي، باستعمال منهجية التشتيت والفضح والتعرية. لذا، فقد وجد كُتّاب الاستغراب في تفكيكية جاك دريدا آليةً منهجيةً لإعلان لغة الاختلاف، وتقويض المسلمات الغربية، والطعن في مقولاتهم البيضاء ذات الطابع الحلمي الأسطوري. كما تأثّروا في ذلك بميشيل فوكو، وكارل ماركس، وأنطونيو غرامشي، وكان إدوارد سعيد رائدَهم في ذلك.

ولقد رفض كُتّاب الاستغراب ومثقّفوه الاندماج في الحضارة الغربية، وانتقدوا سياسة الإقصاء والتهميش والهيمنة المركزية، ورفضوا كذلك الاستلاب والتدجين. وفي المقابل، دعوا إلى ثقافةٍ وطنيةٍ أصيلةٍ، ونادوا بالهوية القومية الجامعة. ومن هؤلاء -مثلا- كُتّاب الحركة الزنجية الإفريقية ومبدعوها الذين سخّروا كل ما لديهم من آلياتٍ ثقافيةٍ وعلميةٍ لمواجهة التغريب، فتشبّثوا بهويتهم السوداء، ودافعوا عن كينونتهم الزنجية الإفريقية. وقد رأينا كذلك كُتّاب الفرانكفونية بالمغرب العربي يحاربون المستعمر بلغته، ويقوّضون حضارته بالنقد والفضح والتعرية، مستخدمين في ذلك لغةً فرنسيةً مختلطةً باللغات الوطنية تهجينًا، وأسلبةً، وسخريّةً.

(١) محمد خروبات: الاستشراق والعلوم الإسلامية بين نقلانية التأصيل وعقلانية التأويل، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٧م، ص:١١٥.

ولم يقتنع مثقفو الاستغراب بقراءة الخطاب الاستشراقي الغربي فحسب، بل حاولوا مقاومة المستعمر بكل الوسائل المتاحة، إما عن طريق المقاومة السلمية أو المسلحة،وإما عن طريق الاستشراق المضادّ، وإما بنشر الكتابات التقويضية لتفكيك الفكرين المتمركزين: الأوروبي والأمريكي، وفضحهما بشتى السبل والطرائق، ما دام هذان التمركزان مبنيين على اللون، والعرق، والجنوسة، والطبقة، والدين.

ولم يكتف مثقّفو الاستغراب أيضا بتوجيه النّقد إلى الغرب، بل سعوا إلى نقد ذواتهم ضمن ما يُسمّى بالنقد الذاتي، كما عند الناقد الكيني الأصل عبد الرحمن جان محمد حينما صرح قائلاً: «**أعتقد أنّنا نحتاج إلى الإفصاح بشكلٍ أكثرَ انتظامًا، عن الواجبات التي تفرضها علينا هذه الوضعية البينية، وهي واجباتٌ أشعر أنّه يمكن استشعارها من وضعية مثقف «العالم الثالث»** في الأكاديميات الغربية. إننا لا نزال نكافح ضد الهيمنة المعرفية للغرب، لا نزال نحارب «**الاستعمار**» و»الاستعمار الجديد». ولكن بالمقارنة مع التابع في «**العالم الثالث**»، نحن نعيش في ظروفٍ بالغةِ الرفعة. بعض النُّقاد يؤكدون أنّ نوعًا معيَّنًا من نظرية ما بعد الاستعمار يمثّل هو نفسه جزءًا من البنية القائمة على الهيمنة، أيْ أنّه نوعٌ مستمرٌّ ومكرَّرٌ من الاستعمار. ولهذا أعتقد أنه لا بد لنا أن نستمرّ على خطى غاياتري سبيفاك وآخرين، فنتفحص وضعية ذواتنا في كل هذه النواحي وبشكل أكثرَ انتظامًا»[1]

ويعني هذا أن ثمة مفارقةً بين القول والفعل، وأن هناك انفصامًا وجوديًّا وحضاريًّا وطبقيًّا بين مفكري الاستغراب وواقعهم المتخلف المزري.

وإذا كان المفكرون الغربيون قد تعاملوا مع الشرق في ضوء علم الاستشراق باعتباره خطابًا استعماريًّا وكولونياليًّا من أجل إخضاعه حضاريًّا، والهيمنة عليه سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، فإنّ المثقّفين الذين ينتمون إلى الاستغراب كحسن حنفي -مثلاً- يدعون إلى استشراقٍ مضادٍّ، أو ما يُسمَّى أيضا بعلم الاستغراب بغية تفكيك الثقافة الغربية تشريحًا

(1) -Theory, Practice and the Intellectual: A Conversation with Abdul R. Jan Mohamed, by S.X. Goudie, Juvert: A Journal of postcolonial Studies, published by The College of Humanities and social sciences, North Carolina State University, Volume 1, Issue 2, 1997.

وتركيبًا، وتقويض خطاب التمركز تشتيتًا وتأجيلاً، وفضح مقصدية الهيمنة على أسسٍ علميةٍ موضوعيةٍ.

وقد دافع علم الاستغراب كثيراً عن التعددية الثقافية، بانتقاد التمركز الثقافي الغربي والثقافة الواحدة المهيمنة. كما رفض سياسية التدجين والتغريب والإقصاء، ونادى إلى التنوع الثقافي والانفتاح الثقافي عبر آليات المثاقفة، والترجمة، والنقد، والتفاعل الثقافي.بمعنى أنّ هناك ثقافاتٍ جديدةً إلى جانب الثقافة الغربية المركزية، كالثقافة العربية، والثقافة الآسيوية، والثقافة الإفريقية، والثقافة الأمازيغية... بمعنى أنّهليس هناك ثقافةٌ مهيمنةٌ واحدةٌ ووحيدةٌ، بل هناك ثقافاتٌ هجينةٌ متعددةٌ ومتداخلةٌ ومتلاقحةٌ.

ومن أهمّ روّاد الاستشراق المضاد، أو علم الاستغراب، المفكر المصري حسن حنفي الذي يُعرف بتأسيسه لعلم الاستغراب نظريةً وتطبيقًا،كما يتجلّى ذلك واضحا في كتابه القيّم (مقدمة في علم الاستغراب)، والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد الذي يعرف بكتابه البارز (الاستشراق) الذي صدر سنة 1978م، وقد تبنى فيه الباحث منهجيةً تقويضيةً تفكيكيةً في دراسة الخطاب الاستشراقي الغربي.

وهكذا، ينفي حسن حنفي عن نفسه، في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب)[1]، تهمة الانغلاق والانكماش والانطواء على الذات، برفض الغرب جملةً وتفصيلاً، كما يبدو ذلك جليًّا في الفكر السلفي التقليدي، بل يدعو إلى إبداع الأنا مقابل تقليد الآخر، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوعٍ للمعرفة، لا مصدرًا لها. وبهذا، يؤسس حسن حنفي لعلمٍ جديدٍ هو علم الاستغراب (occidentalisme) خلافا لنزعة التغريب (Westernisation/ occidentalisation).

ومن هنا، ينطلق الكاتب من ثلاث مواقفَ رئيسةٍ: الموقف من التراث (النقد الذاتي)، والموقف من الغرب (علم الاستغراب)، والموقف من الواقع (نظرية التفسير والطرح الجديد). وبذلك، يهتمّ حسن حنفي بجدلية الأنا والآخر، بالتأرجح بين أزمنةٍ ثلاثةٍ هي: الزمن الماضي المخصّص

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنيه للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م.

للتّراث العربيّ القديم، وزمن المستقبل المخصّص للوعي الأوروبيّ، وزمن الحاضر المخصص لواقعنا العربي المباشر، أي: يدرس حسن حنفي الموروث (التراث القديم/ الماضي)، والوافد (الغرب/ المستقبل)، وموطن الإبداع أو بوتقته التي ينصهر فيها الموروث والوافد (الحاضر). وبهذا، يتوقّف الباحث عند جدلية الأنا والآخر، وجدلية النقل والإبداع، وجدلية الماضي والحاضر، وجدلية الزمان والمكان، وجدلية الأصالة والمعاصرة، وجدلية التأصيل والتغريب...

وينصبّ علم الاستغراب عند حسن حنفي على تفكيك المركزية الغربية وتقويضها، والدفاع عن الأنا وفق مقاربةٍ إبداعيةٍ تأصيليّةٍ منفتحةٍ على الحداثة. وإذا كان الاستشراق يحوّل الشرق(الآخر) إلى موضوعٍ للدراسة، ويتحوّل المستشرق إلى ذاتٍ دارسةٍ تتحكّم في الموضوع المدروس وفق مقارباتٍ ومناهجَ معينةٍ، فإن الاستغراب يحوّل الغرب إلى موضوعٍ للدراسةٍ، لا إلى مصدرٍ للمعرفة والعلم، وبذلك تُصبح الأنا المستغربة تتحكّم في الموضوع المدروس الذي يتمثّل في الغرب. ومن هنا، تنقلب الكفّة لصالح الأنا المستغربة التي تحاول نقد الحضارة الغربية، وتبيان مصادرها وأصولها، وتشخيص مظاهر قوتها وضعفها، والدفاع عن حضارة الأنا بغية تجاوز مُركّب النّقص الذي يُحسّ بها المفكّر العربيّ المسلم أمام عظمة الغرب.

إذاً، يعني الاستغراب الدفاع عن الإبداع العربي، وتقويض المنظومة الذهنيّة الغربيّة وتفكيكها فلسفيّا، ودينيّا، وعلميّا، وحضاريّا. ومن ثمّ، يتمثّل الهدف الرئيس من هذا التفكيك في «**فك عقدة النقص التّاريخيّة في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مُركّب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذاتٍ دارسٍ إلى موضوعٍ مدروسٍ، والقضاء على مُركّب النقص لدى الأنا بتحويله من موضوعٍ مدروسٍ إلى ذات دارسٍ.**[1]»

ويتابع حسن حنفي تصوُّره للاستغراب: «**كيف ندرس الغرب؟ لا بد من التخطيط الفعّال في هذه القضية إن أردنا أن ننجح حقًّا في معرفة الغرب**

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص:٢٩.

والإفادة من المعطيات الإيجابية للحضارة الغربية. ويحتاج هذا الأمر إلى عشرات اللجان في العديد من الجامعات العربية والإسلامية لوضع الخطط اللازمة لهذه الدراسات. ولكن حتى يتمّ ذلك لا بد من التفكير في الطريقة المثلى لهذه الدراسات.

وبعد البدء في برامج اللغات العربية استعانت الجامعات الأمريكية بعددٍ من أساتذة الجامعات البريطانيين خاصّةً، والأوروبيين عامةً، لتدريس الاستشراق في الجامعات الأمريكية، كما بدأت الاستعانة ببعض أبناء المنطقة لإنشاء أقسام دراسات الشرق الأدنى، كما فعلت جامعة برنستون حينما كلّفت فيليب حِتّي لإنشاء القسم في الجامعة. ثم بدأ التعاون بين أقسام دراسات الشرق الأوسط والمؤسسات العلمية الأخرى مثل مؤسسة الدراسات الاجتماعية والإنسانية وغيرها من المؤسسات العلمية والأكاديمية. وفي العالم الإسلامي يكاد لا ينقصنا دراسة اللغات الأوروبية، ولكننا بحاجةٍ إلى من يتعلّم هذه اللغات ليصل إلى مستوًى رفيعٍ في التمكّن من هذه اللغات، وبالتالي الدراسة في الجامعات الغربية والتعمّق في قضايا الغرب، لا دراسة موضوعات تخص العالم الإسلامي. كما أنّنا بحاجةٍ إلى من يتعمّق في علم الاجتماع الغربي ليعرف مجتمعاتهم كأنّه واحدٌ منهم. ولم تَعدْ هذه المسألة صعبةً؛ فإنّ في الغرب اليوم كثيراً من المسلمين من أصولٍ أوروبيةٍ وأمريكيةٍ يستطيعون معرفة بيئاتهم معرفةً حقيقيةً، ولا يَعوقهم شيءٌ في التوصّل إلى المعلومات التي يرغبون في الحصول عليها. ولا بد من التأكيد على أنّ دراستنا الغربَ يجب أن تستفيد من البلاد التي سبقتنا في هذا المجال، ومن ذلك أن عدداً من البلاد الأوروبية قد أنشأت معاهدَ للدراسات الأمريكية، فهناك معهد الدراسات الأمريكية التابع لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن.

ودراستنا الغربَ لا شك ستختلف عن دراسة الغرب لنا، ذلك أنّ الغرب بدأ الاستشراق فيه منطلقًا من توجيهات وأوامر البابوات لمعرفة سرّ قوة المسلمين وانتشار الإسلام في البلاد التي كانت خاضعةً للنصرانية. وكان القصد لا فقط معرفة الإسلام والمسلمين، ولكن كانت أيضًا لهدفين آخرين:

أحدهـما تنفـير النّصـارى مـن الإسـلام، والثـاني إعـداد بعـض رجـال الكنيسـة للقيـام بالتنّصـير في البـلاد الإسـلامية.

أمـا نحـن فحـين نريـد دراسـة الغـرب ومؤسسـاته وهيئاتـه فـأوّلاً نحـن بحاجـةٍ للأخـذ بأسـباب القـوّة الماديّـة التـي وصلـوا إليهـا، أليـس في كتابنـا الكريـم مـا يؤكـد هـذا ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفـال 60).

والأمـر الآخـر أنّنـا حـين نَـدْرس الغـرب فليـس لدينـا تطلعـاتٌ اسـتعماريةٌ، فـما كان المسـلمون يومًـا اسـتعماريين. ولكنّنـا نريـد أن نحمـيَ مصالحنـا ونفهـم طريقـة عمـل الـشركات متعـددة الجنسـيات التـي ابتدعهـا الغـرب وأصبحـت أقـوى نفـوذًا مـن كثـيرٍ مـن الحكومـات، وجـاء في حديـث المصطفـى صـلى اللـه عليـه وسـلم: (نـضّر اللـه امـرأً سـمع مقالتـي فوعاهـا فبلّغهـا إلى مـن لم يسـمعها؛ فـرُبّ مُبَلّـغٍ أوعـى مـن سـامعٍ أو رُبَّ حامـلِ فقـهٍ إلى مـن هـو أفقـهُ منـه). ونحـن أمـة الشـهادة فكيـف لنـا أن نشـهد عـلى النـاس دون أن نعرفهـم المعرفـة الحقيقيـة؟!(﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

والأمـر الثالـث وهـو أمـرٌ لـه أهميتـه الخاصـة، أن هـذه الأمـة هـي أمـةُ الدعـوة والشـهادة؛ فـإنْ كان الأنبيـاء قبـل سـيّدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم كانـوا يُكَلّفـون بدعـوة أقوامهـم بينـما الدعـوة الإسـلامية موجهـةٌ إلى العـالم أجمـع، وقـد كلّـف المسـلمون جميعًـا بحمـل هـذه الأمانـة.

ولـن يكـون علـم الاسـتغراب لتشـويه صـورة الغـرب في نظـر العـالم، ذلـك أننـا ننطلـق مـن قولـه تعـالى {ولا يجرمنّكـم شـنآن قـوم عـلى ألا تعدلـوا اعدلـوا هـو أقـرب للتقـوى واتقـوا اللـه}، ولنـا أسـوةٌ في ذلـك بمـا ورد عـن عمـرو بـن العـاص رضي اللـه عنـه في وصـف الـروم بقولـه: «**إنّ فيهـم لخصـالاً أربعًـا: إنهـم لأحلـم النـاس عنـد فتنـة، وأسرعهـم إفاقـةً بعـد مصيبـةٍ، وأوشـكهم كـرةً بعـد فـرّةٍ، وخيرُهـم لمسـكينٍ ويتيـمٍ وخامسـةً حسـنةً جميلـةً: وأمنعهـم مـن ظلـمِ الملـوك**».

فمتى ينشـأ علـم الاسـتغراب؟!»[1]

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، ص:٢٩.

مـن خـلال هـذا النّـصّ الطويـل، يتبـيّن لنـا أنّ حسـن حنفـي هـو رائـدُ علـم الاسـتغراب في الوطـن العـربي بامتيـازٍ؛ حيـث يدعـو إلى تأسـيس هـذا العلـم في الجامعـات العربيـة مـن أجـل دراسـة العقـل الغـربي فهـمًا، وتفسـيرًا، وتأويـلاً. ولـن يتحقّـق ذلـك الأمـر إلا بالتسـلّح بمنهجيـة التفكيـك الغـربي مـن جهـةٍ، ومنهجيـة القـرآن والسـنة مـن جهـةٍ أخـرى، مـن أجـل فهـم قـوة الغـرب وتفسـيرها وتأويـل منظومتهـا الفكريـة المركزيـة، واسـتجلاء مَواطـن قـوة الغـرب وبواطـن ضعفـه. وأهـم ميـزةٍ يتميّـز بهـا هـذا المفكـر المـصري هـو دعوتـه إلى تأسـيس علـمٍ جديـدٍ هـو علـم الاسـتغراب الـذي يتميّـز عـن الفكـر الإسـلامي بحداثـة مناهجـه العلميـة، والاسـتعانة بالفلسـفة والأدوات المختبريـة الموضوعيـة.

ومـن ناحيـةٍ أخـرى، يُعـدُّ المفكـر الفلسـطيني إدوارد سـعيد مـن رُوّاد علـم الاسـتغراب، ومـن محلِّـلي الخطـاب الاسـتعماري، ومـن أهـمّ منظِّـرِي نظريـة «**مـا بعـد الاسـتعمار**». لذلـك، تـوج بكونـه مؤسسـا لهـذا الحقـل المعـرفي الـذي يعنى بتفكيـك الخطـاب الاسـتعماري أو الكولونيـاليّ الجديـد. كـما يُعـدُّ أيضًـا مـن رُوّاد النّقـد الثّقـافيْ؛ لأنّـه اهتـمّ كثـيرًا باستكشـاف الأنسـاق الثّقافيـة المضمـرة في المؤسسـات المركزيـة الغربيـة، بتحليـل الخطـاب الاسـتشراقي تفكيـكًا وتشريحًـا وتقويضًـا، متأثِّـرًا في ذلـك بمنهجيـة دريـدا، وميشـيل فوكـو، وأنطونيـو غرامـشي.

وينطلـق إدوارد سـعيد، في كتابـه (الاسـتشراق)، مـن تعريـف الـشرق، بتحديـد مدلولاتـه الجغرافيـة والحضاريـة، وتعريـف مصطلـح الاسـتشراق في ضـوء المفاهيـم اللغويـة، والعلميـة، والأكاديميـة، والتاريخيـة، والماديـة. وبعـد ذلـك، ينتقـل الباحـث إلى اسـتعراض تاريـخ الاسـتشراق الغـربي في مسـاراته العلميـة والاسـتعمارية، مُركِّـزًا بالخصـوص عـلى الاسـتشراق الفرنـسي، والاسـتشراق الإنجليـزي، والاسـتشراق الأمريـكي الـذي ازدهـر بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة. ومـن ثَـمّ، فلقـد تعامـل الباحـث مـع الاسـتشراق خطابًـا للتحليـل، معتمـدًا في ذلـك عـلى نظريـات ميشـيل فوكـو وأنطونيـو غرامـشي. وفي هـذا الصـدد، يقـول إدوارد سـعيد: «**إذا اتّخذنـا مـن أواخـر القـرن الثامـن عـشر نقطـةً للانطـلاق محـدَّدةً تحديـدًا تقريبيًّـا، فـإن الاسـتشراق يمكـن أن يناقـش، ويحلـل بوصفـه المؤسسـة المشـتركة للتعامـل مـع الـشرق التعامـل معـه بإصـدار تقريـراتٍ حولـه، وإجـازة**

الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجازٍ، الاستشراق كأسلوبٍ غربيٍّ للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه. ولقد وجدت استخدام مفهوم ميشيل فوكو للخطاب، كما يصفه في كتابيه (حفريات المعرفة) و(المراقبة والعقاب) ذا فائدةٍ هنا لتحديد هوية الاستشراق. وما أطرحه هنا هو أنّنا ما لم نكتنهْ الاستشراق بوصفه خطابًا، فلن يكون في وسعنا أبدًا أن نفهم الفرع المنظَّم تنظيمًا عاليًا الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تتدبر الشرق -بل حتى أن تنتجه- سياسيًّا، واجتماعيًّا، وعسكريًّا، وعقائديًّا، وتخييليًّا، في مرحلة ما بعد عصر التنوير. وعلاوةً على ذلك، فقد احتلّ الاستشراق مركزًا هو من السيادة بحيث إنني أؤمن بأنّه ليس في وسع إنسانٍ يكتب عن الشّرق، أو يفكّر فيه، أو يمارس فعلاً متَّعلّقًا به أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المُعيقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل. ولا يعني هذا أن الاستشراق، بمفرده، يقرّر ويحتّم ما يمكن أن يُقال عن الشرق، بل إنّه يشكّل شبكةالمصالح الكلّيّة التي يُستحَضر تأثيرُها بصورةٍ لا مفرّ منها في كلِّ مناسبةٍ يكون فيها ذلك الكيان العجيب الشرق موضعا للنّقاش. أما كيف يحدث ذلك، فإنه ما يحاول هذا الكتاب أن يكشفه. كذلك يحاول هذا الكتاب أن يُظهر أنّ الثقافة الغربية اكتسبت المزيد من القوّة ووضوح الهوية بوضع نفسها موضع التضاد مع الشرق باعتباره ذاتًا بديلةً.»[1]

ومن الناحية المنهجيّة، فلقد اعتمد إدوارد سعيد على دراسة الخطاب الاستشراقي بمنهجيةٍ فيلولوجيةٍ تفكيكيةٍ قائمةٍ على دراسة الأفكار والثقافات والتواريخ ليبرهن على أنّ العلاقة بين الشرق والغرب مبنيّةٌ على القوة والسيطرة والهيمنة المعقدة المتشابكة. ومن ثَمّ، يرى إدوارد سعيد أنّه «**ينبغي على المرء ألّا يفترض أبدًا بأنّ بنية الاستشراق ليست سوى بنيةٍ من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا كان للحقيقة المتعلقة بها أن تُجلَّى. وأنا نفسي أؤمن بأنّ الاستشراق أكثرُ قيمةً بشكلٍ خاصٍّ كعلامةٍ على القوّة الأوروبية -الأطلسيّة- بإزاء**

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة سنة ٢٠٠٥م، ص:٣٨-٣٩.

الشرق منه كخطابٍ حقيقيٍّ عن الشرق (وهو ما يُدعى الاستشراق، في شكله الجامعي أو البحثي، كونه). على أيِّ حالٍ، إنّ ما علينا أنْ نحترمه ونحاول أن ندركه هو القوة المتلاحمة للخطاب الاستشراقي، وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية المعززة، وقدرته المهيبة على البقاء.»[1]

وعليه، فلقد تمثّل إدوارد سعيد منهجية ميشيل فوكو في دراسة الخطاب، ثُمّ استحضر أفكار أنطونيو غرامشي في التمييز بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، والحديث عن التسلط الثّقافيّ. ومن ثَمّ، يمثّل الاستشراق الغربي نوعًا من التّسلّط الثّقافيّ؛ لأنه يؤكّد التّفوّق الأوروبي مقابل التّخلّف الشّرقّي، ويبيّن أيضا أنّ للغرب اليد العليا على الشرق تنويرًا، وتعليمًا، وتثقيفًا، وتمدينًا.

وقد استند إدوارد سعيد، في تعامله مع الخطاب الاستشراقي، إلى رؤيةٍ ثقافيةٍ سياسيةٍ قائمةٍ على ثلاثِ خطواتٍ منهجيةٍ هي:

أولاً: التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية.

وثانياً: الاهتمام بالمسألة المنهجية في التعامل مع الأفكار والمؤلفين والمراحل التاريخية، بالتركيز على الاستشراق الاستعماري للشرق، سواءً أكان فرنسيًّا، أم بريطانيًّا، أم أمريكيًّا.

وثالثاً: البعد الشخصي الذي يتمثل في الجمع بين الموضوعية والذاتية القائمة على الوعي النّقديّ، مع الاستعانة بأدوات البحث التاريخي، والسياسي، والإنساني، والثقافي.

وفي الأخير، يبيّن إدوارد سعيد أن كتابه(الاستشراق) مُوجَّهٌ إلى مجموعةٍ من القُرّاء، بما فهيم طُلّاب الأدب والنقد لتبيان العلاقات المتداخلة بين المجتمع والتاريخ والنصوص، وفهم الدور الثقافي الذي يقوم به الشرق في الغرب، مع الربط بين الاستشراق وبين العقائدية والسياسة ومنطق القوة. كما يقدّم الكتاب إلى القارئ العام وقارئ العالم الثالث؛ حيث تطرح هذه الدراسة بالنسبة له «**خطوةً لا نحو فهم السياسة الغربية والعالم الغربي في هذه السياسة، بل نحو فهم قوة الخطاب الثقافي الغربي، وهي قوةٌ كثيراً**

(١) إدوارد سعيد: نفسه، ص:٤١.

جـدًّا مـا تُفهـم خطـأً عـلى أنهـا زخرفيـةٌ فقـط، أو منتميـةٌ إلى البنيـة الفوقيـة. إنّ أمـلي هـو أنْ أوضّـح البنيـة المتينـة الصلبـة للسـيطرة الثقافيـة والأخطـار والإغراءات الكامنـة في اسـتخدام هـذه البنيـة، خصوصًـا بالنسـبة للشـعوب المسـتعمرة سـابقًا، عليهـم أو عـلى الآخريـن.»[1]

إذاً، لقـد تأثّـر إدوارد سـعيد بفكـر (مـا بعـد الحداثـة) بصفـةٍ عامـةٍ، وفكـر ميشـيل فوكـو بصفـةٍ خاصّـةٍ. دون أن ننـسى تأثّـره بالتاريـخ الجديـد، وفلسـفة جاك دريـدا التفكيكيـة والتقويضيـة. وقـد ربـط إدوارد سـعيد خطابـه الاسـتشراقي بنزعـة التبايـن والاختـلاف بـين الـشرق والغـرب؛ فلقـد تسـلّح الغـرب بـكل مقولاتـه المركزيـة وآلياتـه البنيويـة لإخضـاع الـشرق والهيمنـة عليـه سياسـيًّا، وعسـكريًّا، واجتماعيًّـا، وثقافيًّـا، وعلميًّـا. ومِـنْ ثَـمَّ، يقـوم الاسـتشراق بـدورٍ هـامٍّ في عمليـة الإخضـاع والاسـتيلاء والتغريـب، بربـط الـشرق بأغـراض المصلحـة الغربيـة. ومِـنْ ثَـمَّ، يتبجّـح الاسـتشراق الغـربي بالصفـات الرشـيدة للحضـارة الغربيـة التـي تتمثـل في الديمقراطيـة عـلى سـبيل الخصـوص. بينـما يُعـرَّف الـشرق بالصفـات الذميمـة كالشـهوانية، والبدائيـة، والاسـتبدادية. ومِـنْ ثَـمّ، فالغـرب عنـد إدوارد سـعيد هـو العقـل، والمركـز، والاسـتشراق.

ومـن هنـا، يطـرح إدوارد سـعيد سـؤالاً هامًّـا وقَيِّـمًا: هـل كُتّـاب السـكان الأصليـين في إطـار النظريـة الجديـدة يتمثّلـون النظريـة الغربيـة أم يعارضونهـا؟ بمعنـى هـل يرفضـون الثقافـة السـائدة ؟ أم يُخضعونهـا لمـشرح التفكيـك والتقويـض بالمفهـوم الدريـدي نسـبةً إلى تفكيكيـة جـاك دريـدا؟!!

ويـرى ديفيـد كارتـر (David Karter)، في كتابـه (النظريـة الأدبيـة)، أن تحليـلات إدوارد سـعيد» للخطابـات الاجتماعيـة المختلفـة هـي بشـكلٍ أسـاسيٍّ تفكيكيـةٌ و»ضـد التيـار». فقـد كان هدفـه تهميـش الوعـي للعـالم الثالـث، وتقديـم نقـدٍ مـن شـأنه أن يُقـوّض هيمنـة خطابـات العـالم الأول. وبالنسـبة لسـعيد، جميـع تمثيـلات المـشرق المقدَّمـة مـن قِبـل الغـرب تُشـكّل جهـدًا دؤوبًـا يهـدف إلى الهيمنـة والإخضـاع. وقـد خـدم الاسـتشراق أغـراض الهيمنـة الغربيـة (بالمعنـى الـذي قصـده غرامـشي): لإضفـاء الشرعيـة عـلى الإمبرياليـة، وإقنـاع سـكان هـذه المناطق

(١) إدوارد سعيد: نفسه، ص:٥٧.

بـأنّ قبولهـم للثقافـة الغربيـة هـي عمليـة تمديـنٍ إيجابيـةٍ. ومـن خـلال تعريـف الاسـتشراق للـشرق، فإنـه يعـرف أيضـا كيـف يتصـور الغـرب نفسـه (وذلـك مـن خـلال المعارضـات الثنائيـة). فالتشـديد عـلى الشـهوانية والبدائيـة والاسـتبدادية في الـشرق، يؤكـد عـلى الصفـات الرشـيدة والديمقراطيـة عنـد الغـرب.»[1]

ومـا يُلاحَـظ عـلى إدوارد سـعيد أنّـه قـد أهمـل الاسـتشراق الإسـباني، عـلى الرغـم مـن طابعـه الاسـتعماري في المغـرب عـلى سـبيل الخصـوص. كـما نعتـبره المؤسـس الحقيقـي لنظريـة «**مـا بعـد الاسـتعمار**» في الحقلـين الثقافيـين: العـربي والغـربي عـلى حـدٍّ سـواءٍ. ويُعـدُّ كذلـك الممِّهـدَ الفعـليَّ للنّقـد الثّقـافيّ وعلـم الاسـتغراب عـلى حـدٍّ سـواءٍ. ومـن هنـا، «**يـأتي إدوارد سـعيد في طليعـة محلِّـلي الخطـاب الاسـتعماري، بـل ويَعُـدُّه بعضهُـم رائـدَ الحقـل، فقـد اسـتطاع بمفـرده في كتابـه (الاسـتشراق) كـما كتـب أحـد الدارسـين مؤخَّـرا، «أن يفتتـح حقـلاً مـن البحـث الأكاديمـي هـو الخطـاب الاسـتعماري**» (باتـراك ويليامـز،5). ذلـك أنّ دراسـة سـعيد للاسـتشراق دراسـةٌ لخطـاب اسـتعماريٍّ، خطـابٌ تلتحـم فيـه القـوة السياسـية المهيمنـة بالمعرفـة والإنتـاج الثقـافي، غـير أنّ تحليـل سـعيد جـاء مرتكـزًا عـلى سـياقٍ معـرفيٍّ وبحثـيٍّ سـابقٍ لـه يتضمـن أعـمال اثنـين مـن المفكريـن الأوروبيـين المعاصريـن، هـما: الفرنـسي ميشـيل فوكـو والإيطـالي أنطونيـو غرامـشي. ومـن الممكـن والحـال كذلـك اعتبـار هذيـن المفكريـن ممّـن وضعـوا أسـس البحـث في الخطـاب الاسـتعماري، بالإضافـة إلى بعـض فلاسـفة مدرسـة فرانكفـورت مثـل: ثيـودور أدورنـو، وماكـس هوركهايمـر، وكذلـك والـتر بنجامـين، وحنّـه أرنـدت.»[2]

ومـن هنـا، فكتـاب (الاسـتشراق) لإدوارد سـعيد خـيرُ نمـوذجٍ يُعـبّر عـن علـم الاسـتغراب مـن جهـة، ونظريـة مـا بعـد الاسـتعمار مـن جهـةٍ أخـرى، مـا دام هـذا الكتـاب خطابًـا مُضـادًّا للاسـتشراق الغـربي؛ لكونـه يحـوي انتقـادات واعيـةً ولاذعـةً لخطـاب التمركـز الغـربي تقويضًـا وتفكيـكًا وتشـتيتًا. و»هنـاك شـبهُ

(١) دافيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م، ص:١٢٦.

(٢) سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠م، ص:٩٢.

إجماعٍ بين الدارسين على الدّور المؤسِّس الذي لعبه كتاب إدوارد سعيد عن «**الاستشراق**»، في صياغة اللبنات الأولى لنظرية «**ما بعد الاستعمار**». فقد استدعى هذا الكتاب، بما طرحه من أفكارٍ، طائفةً أخرى واسعةً من الكتابات التي ناقشت هذه الأفكار، أو ردّت عليها، أو طوّرتها، سواءً كتابات اللاحقين من منظِّري «**ما بعد الاستعمار**» مثل: سلمان رشدي، وهومي بابا، وجاياتري سبيفاك، أو من تصدوا للنظرية من منظور مخالف، وكشفوا عن تناقضاتها، مثل إعجاز أحمد وعارف ديليرك. وقد شارك إدوارد سعيد نفسه بعد ذلك في تطوير النظرية وتأمّلها، من خلال كتاباته ومراجعاته المتعددة التالية لكتاب الاستشراق، وخاصّةً في كتب مثل: «**الثقافة والإمبريالية**» و«صور المثقف» و«تأملات حول المنفى» وغيرها. وكان أن انتهت هذه الكتابات جميعًا، وفي زمنٍ قصيرٍ نسبيًّا،إلى بلورة حقلٍ ثقافيٍّ جديدٍ يُعرف الآن باسم «**ما بعد الاستعمار.**»[1]

وعليه، يُعدُّ إدوارد سعيد المؤسس الفعلي لنظرية ما بعد الاستعمار في فترة ما بعد الحداثة، ومن الممهدين الفعليين للنقد الثقافي وعلم الاستغراب في القرن العشرين.

وخلاصة القول: يُعدُّ علم الاستغراب خطابًا مضادًّا للاستشراق الغربي، وقد جاء الاستغراب لفضح المركزية الغربية، ودحض تفوق الغرب المبالغ فيه، بتشخيص العقل الغربي تفكيكًا وتركيبًا، في مختلف مجالاته وميادينه وحقوله النظرية والتطبيقية، بغية استكشاف مواطن القوة والضّعف؛ حيث يتحول الغرب إلى موضوع للدراسة والبحث والفحص والنبش من قِبل الأنا العارفة المشرقية التي تمارس تشريحها التفكيكي والتقويضي لسبر أوهام التمركز الغربي، ونقد مؤسساته الرأسمالية من خلال تقديم بديلٍ حضاريٍّ جديدٍ، يتمثّل في الحضارة العربية الإسلامية.

(١) -خيري دومة: (عَـدْوَى الرَّحِيل موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية «ما بعد الاستعمار»)، http://www.ibn-rushd.org/forum/Adwa-al-Raheel.htm

الخاتمة

وخلاصة القول: يتبيّن لنا، مِمّا سبق ذكره، أنّ الاستشراق عبارةٌ عن حركةٍ فكريةٍ وسياسيةٍ ودينيةٍ وتبشيريةٍ وتنصيريةٍ غرضُها دراسة الشرق لإخضاعه سياسيًّا وعسكريًّا ومجتمعيًّا، وتشويهه دينيًّا وروحيًّا، واستغلاله اقتصاديًّا. ولقد استعمل المستشرقون الغربيون جميع الوسائل المادية والمالية والعلمية لفهم الشرق، وتشويه الإسلام والمسلمين، والحط من قيمة الحضارة العربية الإسلامية. ومن هنا، فالاستشراق حركةٌ فكريةٌ وعلميةٌ وفنيةٌ من جهةٍ، ونزعةٌ دينيةٌ وتبشيريةٌ واستعماريةٌ وتنصيريةٌ من جهةٍ أخرى، هدفها دراسة الشرق العربي الإسلامي دراسةً علميةً وأكاديميةً، سواءً أكانت تلك الدراسة موضوعيةً أم ذاتيةً. ومِن ثَمَّ، فالغرض الرئيس للاستشراق هو فهم الإسلام في كل جوانبه المادية والروحية والعقدية، ودراسة حضارة المسلمين في مختلف مراحلها التاريخية لمعرفة عوامل نهوضها وانتشارها ونكوصها.

وإذا كان الاستشراق ينظر، في عمومه، إلى الإسلام والمسلمين نظرةً عدائيةً أساسها الحقد والاستعلاء والإقصاء والتغريب والهيمنة، فلقد قدّم أيضا خدماتٍ جلى وعظيمةً للتراث العربي الإسلامي في جميع مجالاته وميادينه العلمية والمعرفية. ومِنْ ثَمَّ، فالاستشراق سلاحٌ ذو حدين: حدٍّ إيجابيٍّ، وحدٍّ سلبيٍّ.

ومن ناحيةٍ أخرى، يحيلنا مفهوم الاستمزاغ على تلك الحركة الأمازيغية الهوياتية والفكرية والسياسية والإيديولوجية التي ظهرت في شمال إفريقيا للدفاع عن الحضارة الأمازيغية من جهةٍ، والتشبّث باللغة الأمازيغية وكتابة تيفيناغ من جهةٍ أخرى. ولقد ساهم كثيرٌ من المستمزغين المغاربيين والأجانب في النهوض بهذه الحركة الفكرية والعلمية واللغوية، وما زالت هذه الحركة تؤتي ثمارها إلى يومنا هذا.

وفي ما يخص مصطلح الاستعراب، فهو يحيل على تلك الحركة الفكرية والجامعية والأكاديمية الإسبانية التي اهتمت بدراسة تراث الأندلس في مختلف جوانبه وميادينه وحقوله المعرفية، إما باستخدام اللغة العربية من جهةٍ، وإما باستخدام الإسبانية واللغات اللاتينية من جهةٍ أخرى. وقد تأسّست مدرسة كوديرا (Codera) الاستعرابية لتكوين مجموعةٍ من

المستعربين الإسبان في مجال الدراسات الأندلسية. ومِن ثَمّ، فلقد كانت لهذه المدرسة إيجابياتٌ وسلبياتٌ في الآن نفسه.

ويعني مصطلح الاستغراب دراسةً الغرب دراسةً تقويضيةً وتفكيكيةً علميةً، بنقد غطرسته وتبجّحه ومركزيته وتفوّقه، ضمن ما يُسمّى أيضا بالاستشراق المضادّ. والهدف من ذلك هو التعرّف إلى الغرب في مختلف مجالاته المادية والمعنوية والرمزية، بتفكيك منظومته الفكرية والعقدية والحضارية والثقافية، واستكشاف مواطن قوّته وضعفه، وتبيان سموّ الحضارات المجاورة الأخرى كالحضارة العربية الإسلامية، والحضارات الإفريقية، والحضارات الآسيوية...

المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

١-إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة سنة ٢٠٠٥م.

٢- بول موي: المنطق وفلسفة العلوم، ترجمة: فؤاد حسن زكريا، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

٣- خوان غويتيسولو: في الاستشراق الإسباني، دراساتٌ فكريةٌ، ترجمة: كاظم جهاد، نشر الفنك، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م.

٤- حسن حنفي: مقدمةٌ في علم الاستغراب، الدار الفنيه للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م.

٥- دافيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م

٦- رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة، مصر.

٧- زيغريدهونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تحقيق: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، طبعة ١٩٩٣م.

٨- سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة ٢٠٠٠م.

٩- صادق جلال العظم: الاستشراق والاستشراق معكوسًا، الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م.

١٠- عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، الطبعة الثانية،١٩٨٢م.

١١-عبد المجيد دياب: تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

١٢- عثمان الكعاك: البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.

١٣- محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة ١٩٧٣م.
١٤- مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٣م.
١٥- محمد خروبات: الاستشراق والعلوم الإسلامية بين نقلانية التأصيل وعقلانية التأويل، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٧م.
١٦- محمد شفيق: البربر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
١٧- نجيب العقيقي: المستشرقون، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨٠م.

المراجع الأجنبية:

18-María Rosa Menocal: **The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain** Little, Brown, (2002).

19-Pascual de Gayangos: **History of the Mohammedan Dynasties in Spain.** London 18401861-.

20-Theory, Practice and the Intellectual:

A Conversation with Abdul R. Jan Mohamed, by S.X. Goudie, Juvert: A Journal of postcolonial Studies, published by The College of Humanities and social sciences, North Carolina State University, Volume 1, Issue 2, 1997.

المقالات:

٢١- الحسين الإدريسي: (مسارات التحول في مواقف المستعربين الإسبان)، **الخطاب الاستشراقي في أفق العولمة، يومٌ دراسيٌّ**، منشورات كلية الآداب

والعلـوم الإنسـانية رقـم ٧٦، جامعـة محمـد الأول، وجـدة، المغـرب، الطبعـة الأولى سـنة ٢٠٠٣م.

٢٢- محمـد عابـد الجابـري: (الـتراث ومشـكل المنهج)،**المنهجيـة في الأدب والعلـوم الإنسـانية**، دار توبقـال للنـشر، الـدار البيضـاء، الطبعـة الأولى، ١٩٨٦م.

٢٣- مصطفـى الغديـري: (الحركـة الاسـتعرابية الإسـبانية /مدرسـة كوديـرا نموذجًـا)، **الخطـاب الاسـتشراقي في أفـق العولمـة، يـومٌ دراسيٌّ**، منشـورات كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية رقـم ٧٦، جامعـة محمـد الأول، وجـدة، المغـرب، الطبعـة الأولى سـنة ٢٠٠٣م.

الروابط الرقمية:

٢٤-خـيري دومـة: (عَـدْوَى الرَّحِـيل موسـم الهجـرة إلى الشـمال ونظريـة «**مـا بعـد الاسـتعمار**»)،

http://www.ibn-rushd.org/forum/Adwa-al-Raheel.htm